لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

كتاب الأخلاق

تأليف

أحمد أمين

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب فى المدارس الثانوية ومدارس المعلمين الأوّلية

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٠هـ - ١٩٣١م

للمؤلف

(١) كتاب الأخلاق الكبير — وهو أوسع من هذا الكتاب مادة وأشمل موضوعا يقع فى ٣٢٠ صفحة ، مطبوع بمطبعة دار الكتب المصرية (الطبعة الثالثة) ومجلد تجليدا ظريفا، وثمنه ٢٠ قرشا .

(٢) كتاب "مبادئ الفلسفة" ألفه الأستاذ ا٠س٠رابوبورت يشرح فيه قضايا الفلسفة وتاريخها فى أسلوب سهل، مع تجنب للمصطلحات والنظريات العميقة — وقد تُرجم الى العربية ترجمة صحيحة ودقيقة وطبع بمطبعة دار الكتب المصرية (الطبعة الثالثة)، وثمنه ١٠ قروش .

(٣) فجر الاسلام (الجزء الأول) — وهو يشرح الحياة العقلية والثقافة الاسلامية فى صدر الاسلام الى آخر الدولة الأموية، ويقع فى ٣٧٥ صفحة بالقطع الكبير، وثمنه ٢٠ قرشا .

(مطبعة دار الكتب المصرية ٩٩٢/١٩٣١/٦٠٠٠)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله :

الغرض من هذا الكتاب أن يكون مرشدا للطلبة فى حياتهم الأخلاقية ، يلفتهم الى نفوسهم ، ويبين لهم أهم نظريات الأخلاق ، ويوسع نظرهم فيما يعرض عليهم من الأعمال اليومية ، ويشحذ إرادتهم لتأدية الواجب واكتساب الفضيلة .

راعيت فيه الجهة العملية أكثر مما راعيت الجهة النظرية ، لأن التعمق فى النظريات حظ الفلاسفة ، والعمل وفق ما تتطلبه الأخلاق واجب الناس جميعا ؛ والحياة الأخلاقية تعتمد على الروح الذى يبعث على العمل أكثر مما تعتمد على قواعد العلم .

وقد كنت ألفت كتابا فى الأخلاق نشر مرات ، فلما وضعت الوزارة برنامجها الجديد للأخلاق فى المدارس الثانوية عمدت الى كتابى هذا فصغته صياغة جديدة — بسطت موضوعاته حتى تناسب الطلبة فى دورهم هذا ، وحذفت منه ما زاد عن حاجتهم ، وزدت فيه فصولا لم تكن من قبل .

والله المسئول أن ينفع به كما نفع بأصله م

سبتمبر سنة ١٩٢٩

أحمد أمين

فهـــرس الكتاب

صفحة

(تنبيـــه) وضعنا بعض الفقرات بين قوسـين هكذا [ ] لما نظن أنه فوق مستوى الطلبـة فإذا رآه المدرّس كذلك كان له أن يتركه .

الفصل الأول

علم الأخلاق – ماهيته – موضوعه – مسائله – الأعمال الارادية وغير الارادية – التبعة الأخلاقية

ماهية علم الأخلاق ومسائله — كانا يحكم على بعض الأعمال بأنها خير، وعلى بعضها بأنها شرّ، فنقول: العدل خير، والظلم شرّ، وأداء الدَّين الى صاحبه خير، وإنكار المدين ما عليه شرّ، وهذا الحكم متداول بين الناس رفيعهم ووضيعهم، عالمهم وجاهلهم، على لسان الفيلسوف فى بحثه عن أعمال الإنسان، وعلى ألسنة الصناع فى صناعتهم، بل والأطفال فى ألعابهم، فما معنى الخير والشرّ؟ وبأىّ مقياس أقيس العمل فأحكم عليه بأنه خير أو شرّ؟

كذلك نرى الناس يعملون أعمالا لغاية يطلبون تحقيقها، والناس يختلفون اختلافا كبيرا فى هذه الغايات التى يَنْشُدونها، فبعضهم يطلب المال، وآخر يطلب الجاه، وآخر يطلب العلم وفريق يزهد فى كل ذلك ويطلب رضا الله بالعمل الصالح،

ويأمل النعيم المقيم فى الدار الآخرة، ولكن كثير من هذه الغايات التى يطلبونها ليست هى الغاية الأخيرة، فلو سألت إنسانا لِمَ يعمل هذا العمل؟ لقال: إنه يعمله طلبا للمال، ولو سألته لم يطلب المال؟ لقال: إنه يطلبه ليبنى قصرا ويكوّن أسرة، ولو سايرته فى آماله وسألته لم يريد القصر والأسرة؟ لقال: إنه يرغب أن يكون فى الحياة سعيدا ـ إذن ـ المال والقصر والأسرة ليست غايات أخيرة، انما الغاية الأخيرة له أن يكون سعيدا — فهل للناس جميعا غاية أخيرة واحدة يطلبونها أو بعبارة أخرى ينبغى أن يطلبوها؟ وما هى؟

عن كل هذا يبحث علم الأخلاق.

فهو علم يوضح معنى الخير والشرّ، ويبين ما ينبغى أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضا، ويشرح الغاية التى ينبغى أن يقصدها الناس فى أعمالهم، وينير السبيل لعمل ما ينبغى.

موضوعه — يؤخذ مما ذكرنا أن علم الأخلاق يبحث عن أعمال الناس فيحكم عليها بالخير أو الشرّ، ولكن ليست كل الأعمال صالحة لأن يُحكم عليها هذا الحكم، فكثير من الأعمال لا يصح أن يقال: إنها خير ولا شرّ، ولبيان ذلك نقول:

تصدر من الانسان أعمال غير ارادية كالتنفس ونبض القلب ورمش العين عند الانتقال فجأة من ظلمة الى نور، فهذه الأعمال تسمى (أعمالا غير ارادية)، وهى ليست من موضوع علم الأخلاق، فلا نحكم عليها بخير ولا شرّ، ولا يقال: إن الانسان خيِّر لأن قلبه ينبض نبضا حسنا، أو معدته تهضم هضما جيدا، كما لا يقال: إنه شرّير لأن قلبه لاينبض كما ينبغى، ومعدته لاتهضم هضما حسنا، لأنه لا دخل لارادة الانسان فى ذلك، وكل إنسان يريد أن ينبض قلبه وتهضم معدته على أحسن وجه ولكن ارادته لا أثر لها فى ذلك.

وتصدر من الإنسان أعمال بعد التفكير فى نتائجها وارادة عملها، كمن يرى أن بناء مستشفى فى بلده ينفع قومه ويخفف مصائبهم فيتبرّع بالمال لبنائه وادارته، وكمن يُقْدِم على قتل عدوه فيفكر فى وسائل ذلك ثم ينفذ ما عزم عليه، فهذه الأعمال تسمى «أعمالا إرادية» وهى موضوع علم الأخلاق، فيحكم عليها بأنها خير أو شرّ، وعلى فاعلها بأنه خيِّر أو شرّير.

وهناك نوع من الأعمال بين الاثنين، فله شَبَهٌ بالأعمال الارادية وله شبه بالأعمال غير الارادية، فهل هو من موضوع علم الأخلاق؟ كما فى الأمثلة الآتية:

(١) من الناس من يأتى أعمالا وهو نائم ، فلو أن أحدهم أشعل نارا بمنزله وهو فى هـذه الحالة، أو أطفأ نارا كادت تحرق المنزل، فهل هذا عمل إرادىّ يحكم عليه بأنه خير فى الحالة الأولى وشرّ فى الثانية ؟

(٢) قد يصاب إنسان بداء النسيان فيترك عملا كان يجب عليه عمله فى وقته، أو يخلف موعدا وعده .

(٣) قد يستغرق الفكرَ عمل ، كمن يشتغل بحل مسألة هندسية، أو يقرأ فى رواية لذيذة، فيلهيه ذلك عن درس واجب أو عمل مفروض .

هذه الأعمال كلها — بالتأمل فيها — نرى أنها أعمال غير ارادية ، فليس النائم فى المثال الأوّل قد تعمد إحراق المنزل وقدر نتائجه، لذلك لا يُحكَم على عمله هذا بأنه خير أو شرّ، لأنه لا إرادة له ، ولا يُسأل عنه، و إنما يسأل عنه ويحاسب عليـه اذا كان يعلم أنه مصاب بهـذا المرض وأنه يأتى أعمـالا خطرة وهو نائم ، ثم لم يحتط وقت صحوه وانتباهه لما قد يحصل عند نومه، بأن يحول بين نفسه والنار وأدواتها ، فهو مسئول خلقيا عن عدم الاحتياط وقت الانتباه ، لأنه شىء إرادىّ، كان فى مُكْنته أن يحتاط له ثم

لم يفعل، وكذلك الشأن فى الأمثلة التى ذكرناها ونحوها، فلو أنك نمت وتركت النار مشتعلة فى موقد ثم طارت شرارة أحرقت المنزل لا يسمع لقولك: « إن هذه ليست خطيئتى ولست قادرا أن أمنع النار أن ترمى بالشرر وأنا نائم » اذ يقال لك: « إنك عالم أن ستنام، وقد أردت النوم، وعالم أن النار مشتعلة، وكان فى إمكانك أن تحتاط وقت انتباهك باطفائها، وعالم أنك ستكون فى حالة عدم شعور، فكان ينبغى أن تستعد وقت شعورك لما قد يطرأ وقت عدم شعورك، وذلك باطفاء النار، فنحن إنما نحكم عليك بالخطأ والصواب بالنظر الى عدم الاحتياط، وهو شىء إرادىّ » .

ومثل ذلك الإتيان بعمل مع الاعتذار بجهل النتائج التى تصدر عنه — وكمن كان يعلم من نفسه أنه حادّ الطبع غضوب، لا يضبط نفسه عند سماع كلمة تؤلمه، فيسب أو يضرب من غير شعور، فلو أنه غشى الجمعيات التى هى مَظِنة لإثارة غضبه وأتى بما يستنكر كان مسئولا عن عمله، — لما ذكرناه — وكذلك الأعمال التى آعتيدت حتى صار صاحبها يأتيها من غير ارادة، فإنه يسأل عنها، لأن الاعتياد نتيجة عمل ارادىّ متكرّر، فلا يعذر طالب بأنه انما يدخن لأن التدخين أصبح عادة متمكنة منه، لأنه — على فرض

تمكنه كما يدعى — إنما انغمس فى هذه العادة بعد أن دخن جملة مرات وهو حر مختار مريد حتى صارت عادة، وهكذا .

والخلاصـة : أن موضوع علم الأخلاق هى الأعمـال التى صدرت من العامل عن عمد واختيـار، يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمـل، وكذلك الأعمال التى صـدرت لا عن إرادة ولكن كان يمكن تجنب وقوعها عند ما كان مريدا مختارا، فهذان النوعان يحكم عليهما بالخير أو الشر — وأما ما يصدر لا عن ارادة وشعور، ولا يمكن تجنبه فى حالة الاختيار، فليس من موضوع علم الأخلاق.

التَبِعَة الأخلاقية (المسئولية الأخلاقية) — مما تقدم نفهـم أن التبعة لا تكون إلا اذا وجدت الارادة ، فما لا دخل لإرادة الانسان فيه لا يُسأل عنه، ولا يلام عليه، ولا يمدح أو يذم من أجله، فلا يمدح الشخص لطوله، ولا يذم لقصره، من الناحية الأخلاقية، ولا يقـال : إنه خيّر لأنه جميل الوجه ولا شرّير لأنه قبيحه ، لأن هذه الأشياء وأشباهها لا عمل لإرادة الانسان فيها . وليس يلام الانسان على سوء صحته، ولا يمدح على حسنها إلا بمقدار ماله من أعمال إرادية فى ذلك ، كسيره فى حياته على نظام صحى أو اهماله ذلك .

كذلك لا يُسأل الانسان عما لم يمنح من ملكات عقلية أو فنية، فالنـاس لم يخلقوا جميعا وعندهم استعداد بقـدر واحد للرياضة أو للفنون الجميلة، فمن لم يخلق رياضيا لا يكون مسئولا عن ضعفه الرياضى، انما يكون مسئولا اذا كان عنده الاستعداد الكافى وكان ينقصه المِران والجد ثم لم يمرن ولم يجدّ وهكذا .

والطفل الرضيع اذا بكى وأسهر أمه طول الليل لا يسأل عن عمـله لأنه لا ارادة له، والصيدلىّ اذا أخطأ فأعطى الممرّضة دواء غير المكتوب فى تذكرة الطبيب فناولته الممرّضـة للمريض وهى جاهلة به فمـات منه كان المسئول هو الصيدلىّ لا الممرّضة، لأنها لاإرادة لها فى ذلك، والصيدلىّ هو المسئول لاهماله فى عمله .

فمتى وجدت الارادة وجدت المسئولية، وما لم توجد الارادة فلا مسئولية ، فالأعمال التى ليس فى طاقة الانسان التحرّز عنهـا والتى غُلب فيها على نفسه لا يسأل عنها ، كأعمال المجنون والمغمى عليه، وكذلك أعمال المكرَه، فمن أمسك بيد آخر واضطرّه لأرتكاب جريمـة ولم يستطع المكرَه بحال أن يقاومه لم يكن مسئولا ، انمـا المسئول من أكرهه على العمل .

وهنا كثيرا ما يعرض هـذا السؤال وهو : هل ارادة الانسان حرّة حتى يكون مسئولا عن عمله؟ هذه المسألة من المسائل المشكلة

التى طال فيها الجدل قديما وحديثا ، فيذهب بعض الباحثين الى أن الانسان مُجْبَر ليس حرّ الارادة : ذلك لأن إرادة الانسان تتأثر بشيئين : الوِراثة والبِيئَة، فهو يرث من أبويه ميولا خيرة وميولا شريرة ، وكذلك تؤثر فيـه البيئة التى حوله من بيت ومدرسـة وأصدقاء وكتب ونحو ذلك، فمن نشأ من أبوين مجرمين، وورث منهـما الميل الى الاجرام ، وشبّ بين مجرمين وسمع أحاديثهم كان مجرما لامحالة، ولم يكن حرّ الارادة فيما يفعل، وليس فى استطاعته الا أن يكون مجرما، واذا أردت إصلاحه فأصلح البيئة التى يعيش فيها، وانقله من بيئته السيئة الى بيئة خيرة ، ولكنّ فى هذا الرأى غلوّا، فإن الارادة — وان كانت تتأثر بالوراثة والبيئـة الى درجة كبيرة— فإنها لا تفقد حرّيتها، وأوضح دليـل على ذلك ما نشعر به فى أنفسـنا من أننا أحرار فى الاختيار ، وأننا نستطيع أن نعمل الشىء وألا نعمله ، فمن كذب شعر من نفسـه بأنه كان يستطيع ألا يكذب ، ومن أجل هذا يندم على كذبته ، ولو كان كذبه محتما عليه ما ندم — ولولا أن ارادة الانسان حرّة فى اختيار الخير والشرّ لمـا كان هناك معنى للتعاليم الأخلاقية، ولكان الأمر بفعل الخير والنهى عن الشرّ ضربا من العبث، ولمـا كان هناك معنى للثواب والعقاب والمدح والذمّ .

وهناك نوعان من المسئولية : مسئولية قانونية، ومسئولية أخلاقيــة، فالانسان إذاخالف قانون البــلاد كان مسئولا أمام القضاء ، وعوقب من أجل مخالفته، واذا خالف أوامر الأخلاق كان مسئولا أمام الله وأمام ضميره، والمسئولية الأخلاقية أوسـع دائرة من المسئولية القانونية : ذلك لأن القانون لا يأمر ولا ينهى إلا اذا استطاع أن يعاقب من يخالف أمره ونهيه بالعقوبات التى نص عليها ،أما الأخلاق فسلطانها أوسع ،لأن من يتولى لها المثوبة والعقوبة هو الله والضمير، وكلاهما يشرف على الأعمال الظاهرة والباطنة ــ فالقانون لا يستطيع أن ينهى عن الكذب والحسد لأنه لا يستطيع أن «يسأل» من يرتكبهما ،ولو حاول أن يعاقب الكاذب أو الحاسد لارتكب من إضرار الناس بالوشاية والتجسس أكثر مما يصلح، أما الأخلاق فتنهى عن الكذب والحسد وتنهى عن أكثر من ذلك . فتسأل الانسان عن نياته التى فى أعماق نفسه ولو لم يصدر عنها عمل ، وتكل مكافأته على نياته الحسنة ومعاقبته على نياته السيئة الى الله والى ضميره .

الفصل الثانى

الضمير — الضمير والإرادة — تربية الضمير

يلاحظ الانسان أن فى أعماق نفسه قوة تحذره فعل الشرّ اذا أُغرِى به، وتحاول أن تمنعه من فعله، فاذا هو أصرّ على عمله أحس بانقباض نفسه أثناء العمل لعصيانه تلك القوة، حتى اذا أتم العمل أخذت هذه القوة توبخه على الإتيان به، وبدأ يندم على ما فعل، كالطالب يحاول الغش فى الامتحان فيحس صوتا باطنيا يناديه ألا يفعل، فاذا لم يسمع لهذا الصوت وبدأ يغش أحس أن هذه القوة تثبطه، فاذا استمرّ فى عمله أنّبته وندم وعزم ألا يعود .

كذلك يحس أن هذه القوة تأمره بفعل الواجب، فاذا بدأ فى عمله شجعته على الاستمرار فيه، فاذا انتهى منه شعر بارتياح وسرور، وبرفعة نفسه وعظمتها، كالطالب يرى آخر مشرفا على الغرق فينقذه، فحين إنقاذه يشعر بتشجيع نفسه على المضىّ فى عمله فاذا أتم ذلك شعر بغبطة وسعادة .

هذه القوة الآمرة الناهية تسمى « الضمير » ، وهى — كما رأيت — تسبق العمل وتقارنه وتلحقه ، فتسبقه بالإرشاد الى عمل الواجب ، والنهى عن الرذيلة ، وتقارنه بالتشجيع على الخير ، والتثبيط عن الشرّ ، وتلحقه بالارتياح والسرور عند الطاعة والشعور بالألم والوخز عند العصيان .

هذا الضمير نشعر به كأنه صوت ينبعث من أعماق صدورنا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشرّ ولو لم نرج مكافأة أو نخش عقوبة ، نرى البائس الفقير يجد مالا أو متاعا وهو أشدّ ما يكون حاجة الى مثله ، ولم يكن رآه أحد إلا ربه ، ثم هو يتعفف عنه و يؤدّيه الى صاحبه ، فما الذى حمله على ذلك ! لاشىء إلا الضمير يأمر صاحبه بعمل الواجب لا لمثوبة ولا عقوبة إلا مثوبة نفسه بارتياحها ، وعقوبة نفسه بالندم والتأنيب .

وهذا الضمير طبيعىّ حتى فى الحيوانات الراقية ، فنرى الكلب مثلا عنده نوع إدراك طبيعىّ للواجب ، ويرق هذا الادراك بمخالطته للانسان ، حتى نراه أحيانا يفعل فى الخفاء جرما كأن يسرق شيئا من سيده ، أو يخالفه فى أمر أمره به ، فيظهر على الكلب حينئذ نوع من الاضطراب والقلق يعدّ جرثومة للضمير .

ونلاحظ كذلك جرثومة الضمير فى الطفل الصغير، يعلوه الخجل أحيانا لخطأ ارتكبه فتتبينه فى نظرته، ويدلنا اضطرابه وقلقه على أنه ارتكب خطأ — وينمو هذا الشعور بنمو الانسان حتى يصل به الى حدّ أن يملأه الفرح والغبطة اذا هو أدّى الواجب، ويذوب أسفا وندما اذا عصى أمر الضمير، وهذا الشعور تجده يتبع حالة الانسان، فهو فى حالة سذاجة عند المتوحش، كشأنه فى حديثه وعرفه وحالته الاجتماعية، فإذا رقى الإنسان رقى ضميره، حتى قد يدفعه الى بذل نفسه دفاعا عن رأيه أو فى سبيل إصلاح قومه.

اختلاف الضمير — ليس الضمير هاديا معصوما يأمر بالخير دائما، وينهى عن الشرّ دائما، ولا هو يأمر الأفراد فى الأمم المختلفة أوامر واحدة متساوية فى القوّة، فإنا نرى أن الأمة التى تقدّر النظام فى الحياة تقديرا كبيرا يكون أبناؤها أشدّ إحساسا به، وضمائرهم أقوى فى المطالبة باتباعه، وعلى العكس من ذلك الأمة التى لا تؤمن بفضيلة النظام هذا الايمان.

وأفراد الأمة التى لا تسترذل الكسل لدرجة كبيرة لا يؤنبهم ضميرهم تأنيبا شديدا اذا استسلموا للكسل.

بل الأمة الواحدة يختلف ما يأمر به ضميرها باختلاف العصور، فقد رأينا مثلا منذ سنين قلائل أن كثيرا من المصريين كانوا يوسعون مجال الخلف بين المسلمين والأقباط ، وتستحثهم ضمائرهم على الدعوة الى ذلك ، ويرتاح كل فريق بما يلق من الخطب ، ويكتب من المقالات، في تأييد فريقه والطعن على الفريق الآخر، واليوم نرى أن هذه الدعوة من أكبر الجرائم وأعظم الشرور، ولا تطاوعنا ضمائرنا إذا أردنا أن نمس هذه الوحدة بسوء .

بل الفرد الواحد قد يأمره ضميره بشىء في زمن ويأمره بعكس ذلك فى زمن آخر، كالطالب يأمره ضميره أن ينهمك فى القراءة والدرس من غير أن يراعى جسمه وصحته، فاذا درس قانون الصحة أو شعر بمرض فهم أن لجسمه عليه حقا ولعقله عليه حقا، وطالبه ضميره بأن يرعى صحته وعقله جميعا .

والسبب فى اختلاف أوامره أن الضمير يتأثر بعاملين كبيرين .

فيتأثر (أولا) بالحالة الاجتماعية للأمة وعرفها ودرجة رقيها، فالإنسان ينشأ فى أسرة تستحسن أعمالا وتستقبح أخرى فيتبعها فى استحسانها واستقباحها، ثم هو اذا خرج الى الحياة العامة تبادل مع الناس الأخذ والعطاء فيلتقط آراءهم فى الخير والشر ، ويقلدهم

فى ذلك، ويسايرهم فيما يستحسنون وما يستقبحون، ويأمره ضميره أن يفعل كما يفعلون .

(ثانيا) يتأثر ضمير كل انسان بدرجة عقله وعلمـه، فكلما زاد علم الانسان ونمـا عقله ارتقى ضميره، ذلك أن الخبرة والتجربة ومعرفته بنتائج الأشياء النافعـة والضارة توسع عقـله ، فيتبع ذلك ارتقاء ضميره، حتى قد يأمره ضميره بعـد هذه التجارب بمـا كان ينهاه عنه من قبـل، وينهاه عما كان يأمره به، لأن عقله عرف من الحقائق ما كان يجهله، بل هو اذا وصل الى درجة كبيرة من رقى العقل كان ضميره تابعا لعقله أكثر من تبعيته لتقاليد قومه، واستطاع — اذا هو رزق وسائل الزعامة — أن يغير ما يستنكره من عادات قومه .

*
* *

ومع أن الضمير يختلف باختـلاف الأمم واختلاف العصور وأنه قد يخطئ أحيانا فى أمره ونهيـه — كما رأيت — فإن كل إنسان ملزم باطاعة ضميره، لأنه مأمور بعمل ما يعتقـد أنه الحق لا بعمـل ما هو حق فى الواقع، فالذى يعتقـد شيئا حقا ويأمره ضميره بعمله ملزم أن يطيعه، وليس هناك مسـئولية أخلاقية عليه اذا تبين خطأ ما أمره به ضمـيره، غاية الأمر أنه يجب عليـه أن

يضىء السبيل أمام ضميره بتوسيع عقله وتقوية فكره وتحريه الصواب، فإن هو فعل ذلك كان الضمير هاديا مرشدا، وكان له العذر اذا تبين خطأ ما أمر به ضميره .

الضمير والإرادة — لا قيمة للضمير يأمر وينهى اذا لم يُدْعَم بارادة تنفذ أمره ونهيه ، فقد يشعر الانسان بالواجب ويتأكد من أنه واجب ويأمره ضميره به ولكن يذهب كل ذلك هباء اذا لم يُمنح إرادة قوية تُخْرج هذا الأمر الى الوجود، فالإرادة هى القوة الفاعلة فى الانسان وبدونها تكون أوامر الضمير أحلاما وأمانىّ لا قيمة لها، ولذلك يقول بعضهم : " إن جهنم مرصوفة بالأمانى الطيبة" يريد بذلك أن الأمانى الطيبة اذا لم تبرزها الإرادة الى الوجود فأولى بها الجحيم لا الجنة، إنما يصلح للجنة الأمانى الطيبة التى حولتها الإرادة الى عمل ويقول الشاعر العربى :

من كان مرعى عزمه وهمومه   روضَ الأمانى لم يزل مهزولا

قد تعترض أمام ما يأمر به الضمير عقبات ، فالإرادة القوية تذللها وتشعر بارتياح من تذليلها والتغلب عليها .

وكما نحتاج الى الإرادة فى تنفيذ أوامر الضمير نحتاج اليها فى تنفيذ نهيه ، وذلك بمقاومة الميل الى الشرّ وصدّه والوقوف فى سبيله حتى لا يخرج الى الوجود .

والإرادة القوية سر النجاح فى الحياة — وفضائل الانسان وملكاته تظل فى سبات حتى توقظها الارادة، فمهارة الصانع، وقوة عقل المفكر، والشعور بالواجب ومعرفة ماينبغى وما لا ينبغى، كل هذا لا أثر له فى الحياة ما لم تحوّله قوة الارادة الى عمل .

تربية الضمير — الضمير — ككل ملكات الانسان وقواه — تمو بالتربية وتضعف بالإهمال ، فبعصيان الضمير يضعف أو يموت، شأنه فى ذلك شأن أديب يتذوق الشعر والأدب، فاذا هو أهمل قراءة الأدب وآشتغل « بالرياضة » ضعف ذوقه الأدبى حتى قد يصل الى درجة لا يدرك معها ما فى الأدب من جمال ، كذلك يعصى الانسان ضميره مرة فيحس بلذع شديد من جراء عصيانه، فاذا تكرر منه العصيان أحس بلذع دون ما كان يشعر به عند أوّل مخالفة، ولا يزال الانسان يُتبِع السيئة السيئة حتى لا يشعر بأى نوع من اللوم والتأنيب، لأن صوت ضميره قد خَفَتَ وسلطانه قد ضعف — وكما يضعف الضمير بالعصيان يضعف بصحبة الأشرار و إطالة القراءة فى الكتب الساقطة، فكلا الأمرين يكرر منظر الشر أمام النفس حتى تعتاده ، وكلاهما يتحدّث عن الشر حديث المستحسن فيتخدّر الضمير ويخمد صوته .

ويحيا الضمير بمداومة طاعته ، وباستخدام الارادة فى تنفيذ أمره ونهيه وصحبة الأخيار وقراءة الكتب التى تدعو الى الفضيلة ، ومما يساعد على نموه قوانين البلاد ، فإنها ان كانت صالحة شاركت الأخلاق فى الأمر بالخير ، فتساعد على حياة الضمير وتزيد فى ســلطانه .

خير شيء فى الإنسان ضميره ، فهو " الدليـل " الذى يهـدى سبيل السلام .

الفصل الثالث

الحكم الأخلاقىّ — مقياس الحكم الأخلاقىّ — الرأى الشخصىّ — العرف — الوجدان — العقل والاستدلال — تربية الحكم الأخلاقىّ

تصدر من الانسان أحكام كثيرة متنوعة، فاذا قال: «المبتدأ مرفوع» فهذا حكم نحوىّ لا أخلاقىّ، واذا قال: «الأجسام تتمدد بالحرارة» فهذا حكم طبيعىّ لا أخلاقىّ، انما الحكم الأخلاقىّ هو أن تحكم على الشىء بأنه خير أو شر، فالصدق خير حكم أخلاقىّ، والكذب شر كذلك.

وقد علمنا مما تقدّم أن الحكم الأخلاقىّ لا يصدر إلا على الأعمال الارادية، فما لم تكن ارادة لا يصدر حكم أخلاقىّ، فلو فاض النيل فأغرق كثيرا من البلدان، أو هبت عاصفة فدمرت بلادا، أو هاجت الأمواج فأغرقت سفنا، لا نحكم على هذه الأعمال بأنها شر، اذ لا ارادة، ولو فاض النيل فى اعتدال فروى الأرض وأفادها، وهبّ نسيم عليل فأزهر النبات وأنعش النفوس

لم نحكم على ذلك بأنه خير، كذلك اذا جمح حصان فأوقع راكبه، او سار سيرا حسنا فأوصل صاحبه الى غايته لا نحكم على عمله بأنه شرّ فى الأولى ولا خير فى الثانية ما دمنا لا نعترف للحصان بارادة — وكذلك أعمال الانسان غير الارادية كالتى سبق شرحها.

والآن نريد أن نسأل : قد عرفنا ما نحكم عليه من الأعمال بأنه خير أو شر وما لا نحكم، ولكن اذا أردنا أن نحكم فهل نحكم على العمل باعتبار نتائجه أو باعتبار الغرض الذى أراده العامل من عمله؟ ولتوضيح ذلك نقول :

إن هناك غرضا للعامل من عمله، وهذا يسبق العمل، وهناك نتائج تحصل من العمل وهذه تلحقه، فمثلا قد يقرر جماعة من الأطباء بعد الفحص اجراء عملية لمريض، ثم يتبين بعد اجرائها أن الفكرة كانت خطأ، وأنه كان الأولى ألا تُعمل، ثم يموت المريض منها، فغرض الأطباء أن يشفى المريض، ولأجل هذا أقدموا على ما عملوا، ولكن النتيجة أنه مات، وهذا الغرض كان قبل العمل، وهو غرض حسن، والنتيجة حصلت بعد العمل، وهى سيئة، فهل نحكم على الأطباء باعتبار غرضهم أو باعتبار نتيجة عملهم؟ وهكذا كثير من الأعمال، كرجال حكومة أعلنوا

الحرب على أمة أخرى لأنهم رأوا خير أمتهم فى ذلك، وقد رأوا قوتهم أكبر من قوة عدوّهم، وحسبوا أن ما يغنمون من الفوائد أكبر مما يفقدون من جنودهم وأموالهم، ولكن خاب ما أملوا، فهُزِموا وسُلبوا بعض الولايات، فغرضهم كان الخير لأمتهم، والنتيجة كانت شرًّا لها، فعلى أىّ اعتبار نحكم؟ وكذلك العكس، فقد يريد الانسان شرًّا ثم تكون النتيجة خيرا، كمن يريد أن يغش آخر فيغريه بشراء شىء يظن فيه الخسارة له، فيغنم الشارى من وراء ذلك ربحا كبيرا، فالغرض شر والنتيجة خير، فهل نحكم على العمل بأنه شرّ تبعا للغرض أو خير تبعا للنتيجة ؟

الحق أن العمل يجب أن يحكم عليه بأنه خير أو شرّ نظرا لغرض العامل منه لا نظرا لنتيجته، فالعمل الذى قصد به الخير خير مهما استتبع من النتائج، والذى أريد به الشرّ شرّ ولو استتبع نتائج حسنة، فقبل الحكم على عمل ينبغى أن نعرف غرض العامل منه — أما العمل فى ذاته من غير نظر الى الغرض منه فليس بخير ولا بشرّ، فلو سألتنى هل إحراق أوراق مالية قيمتها ألف جنيه خير أو شرّ؟ لأجبتك : لا يمكن ذلك حتى أتبين غرض العامل من عمله، فقد يكون شرًّا اذا أراد من احراقها الانتقام من مالكها، وقد

يكون خيرا كما اذا قُدّمت رشوةٌ لقاض و رأى القاضى أن لاسبيل الى تأديب الراشى إلا إحراقها .

ولما كان الحكم الأخلاقىّ يعتمد على معرفة غرض العامل من عمله لم يجز لنا أن نصدر الحكم بالخير أو الشرّ إلا على أنفسنا أو على من نتحقق غرضهم من أعمالهم، إما بإخبارهم، أو بقيام القرائن على أغراضهم ، فاذا رأينا من انسان عملا فلا نعجل بالحكم عليه، بل يجب أن نتريث حتى نعرف غرضه منه .

نعم هناك أحكام أخرى نصدرها على العمل باعتبار نتائجه لا باعتبار الغرض منه، وذلك كالحكم على العمل بأنه نافع أوضارّ، فإنه انما يصدر باعتبار نتيجته، والحكم على الشىء بأنه نافع أو ضارّ غير الحكم عليه بأنه خير أو شرّ، كلاهما ينظر الى الشىء من جهة غير التى ينظر اليها الآخر، فعمل الأطباء فى المثال السابق خير ضارّ، خير لأنهم قصدوا الى شفاء المريض ، وضارّ لأن النتيجة كانت وفاته، وهكذا، ولكن يجب أن نعلم أن الحكم على الفعل بأنه نافع أو ضارّ تبعا لنتائجه ليس حكما أخلاقيا ، انما الحكم الأخلاقىّ هو الحكم بأنه خير أو شرّ تبعا للغرض منه .

والإنسان لا يلام على عمل عمله يريد منه الخير مهما ساءت نتائجه، بشرط أن يكون قد بذل جهده فى معرفة ما ينتج من عمله ،

وإنما يلام اذا كان فى استطاعته أن يرى النتائج اذا دقق فى البحث وأنعم النظر ثم لم يفعل ، فموضع اللوم هو التقصير عند اختيار العمل ، وعدم الدقة فى حساب نتائجه ، وليس موضع اللوم هو ارادة العمل الصالح ، ففى مثل الأطباء السابق لا لوم عليهم اذا كانوا بذلوا أقصى جهدهم فى فحصهم وأتت النتيجة بما ليس فى حسبانهم ، انما يلامون اذا قصروا فى الحكم وبنوا حكمهم على نظر سطحي غير دقيق .

* * *

فى جميع ما تقدم كان الحكم الأخلاقي يصدر على العمل ، ولكن نرى أحيانا أن الحكم الأخلاقي يصدر على العامل ، فيقال : إن فلانا طيب وفلانا خبيث أو أنه خيّر أو شرّير ، فما الذى نلحظه عند حكمنا هذا الحكم ؟

عند ما نحكم على العامل نلاحظ «حاصل الجمع» لما يأتى به من أعمال . فقد عرفنا — قبل — ما هو العمل الخير ، وما هو العمل الشر ، فالآن نذكر لك أن الرجل الخير أو الطيب هو الذى يصدر عنه من الأعمال الخيرة أكثر مما يصدر عنه من الشرّ ، والرجل الشرّير هو الذى يكثر منه صدور الأعمال الشرّيرة ، ومن هذا نستنتج أن الرجل الخير قد يأتى بعمل شرّ ولكن يكون الغالب

عليه عمل الخير، لأنا في حكمنا على العمل إنما نلاحظ الغرض من عمله وفي حكمنا على العامل نلاحظ مجموع أعماله في حياته .

⁂

ولكن بأي مقياس أقيس الشيء فأحكم عليه بالخير أو الشر؟ إن الناس كثيرا ما يختلفون في نظرهم الى الشيء الواحد فمنهم من يراه خيرا ومنهم من يراه شرا، بل الشخص الواحد قد يرى الشيء خيرا في آن ثم يراه شرا في آن آخر، فما هذا المقياس الذي بمراعاته نصدر هذا الحكم؟ وأي شيء يراعيه الناس فيقولون: إنه خير أو شر؟

للاجابة على هذا السؤال نستعرض المقاييس التي يستعملها الناس، وقد رأى الباحثون أن الحكم الأخلاقي تدرج في الرقي بتدرج الناس ، فهم في حالة سذاجتهم ينظرون الى الأشياء و يحكمون عليها بمقياس، ثم اذا ارتقوا قليلا تغير مقياسهم وحكمهم، وهكذا حتى يصلوا الى درجة كبيرة من الرقي فيسمو كذلك حكمهم الأخلاقي؛ ولنتتبع الآن الأدوار التي مر بها الناس .

العـــرف — فأول دور سلكوه في معرفة الخير والشر « العـرف » — ونعني بالعرف « عادة الأمة » فاذا اعتادت أمة عملا وكان فاشيا فيهم فذلك عرف، فزيارة القبور في الأعيا دعادة

للمصريين، فهذا عرف، وعادة كل أمة فى ملبسها ونظام معيشتها ونحو ذلك يسمى عرفا .

ولكل أمة عرف خاص تعـدّ خيرها فى اتباعه ، وتؤدّب الأطفال به ، وتشعرهم بأن فيه شيئا من التقديس ، واذا خالفه أحد استهجنت عمله وعدّته خروجا عليها ، فمن الصعب الخروج على المألوف من عرف فى الملبس والمأكل ونظام الأفراح والمآتم وطرق التحية ونحو ذلك .

والناس منساقون الى تنفيذ ما يقضى به العرف، وذلك بتأثير الرأى العام، فالناس — عادة — يمدحون متبعى العرف، ويَسْخَرون من مخالفه ، فلو خرج أحد على عادة الأمة فى زيها أو أفراحها ومآتمها أو طرق تحياتها كان موضعا للنقد القاسى .

وفى أيام سذاجة الناس و بداوتهم لم يكن لهم مقياس يقيسون به العمل إلا العرف، فهم يحكمون على العمل بأنه خير لموافقته للعرف وشرّ لمخالفته له ، ولا يزال كثير من الناس فى كل أمة مهما بلغت من الحضارة يعملون ما يعملون لا لسبب إلا أنه يتفق وعادات قومهم، و يجتنبون ما يجتنبون لأن قومهم لا يعملون — فقياس الخير والشرّ فى نظرهم هو العرف، و به يصدرون أحكامهم على الأشياء.

فلما ارتقى الناس تبين لهم أن العرف لا يصح أن يتخذ مقياسا، فبعض أوامره غير معقول، و بعضها ضارّ — فوأد البنات كان عرفا لبعض قبائل العرب فى الجاهلية ، وهو عرف ضارّ نهاهم الاسلام عنه وأبان ما فيه من خطأ، وعند الرومان كان الأب له الحق فى إماتة أولاده و إحيائهم، والرق مع ما كان فيه من معاملة قاسية كان فاشيا فى كثير من الأمم،وعادات المصريين فى أفراحهم ومآتمهم عرف ضارّ وهكذا .

واذا كان العرف قد يخطئ و يتبين الخلف سوء ما كان عليه السلف لم يصح أن يكون مقياسا صحيحا نقيس به الأعمال فنحكم عليها بالخير أو الشرّ .

ولو أن الناس جروا على مبدأ العرف لم يتقدّم العالم عما كان عليه من قديم ، لأنه إنما يتقدّم بأولئك الذين يرون خطأ العرف فيجاهرون بمخالفته، و يدعون قومهم للخروج عليه، فيلتف حولهم كثير من الناس ، و يأخذ رأيهم فى الانتشار حتى يحل الجديد الحق محل القديم الخطأ .

ومع هذا فانّ جَرىَ الناس على هذا المقياس كان له بعض الفائدة ، فقد حمل كثيرا أن يأتوا بالعادات الصالحة و يمتنعوا عن السيئة جريا مع العرف و رجاء لمدح الناس وخوفا من ذمهم .

* * *

الرأى الشخصى — يلاحظ الذين يدرسون القبائل فى حالتها الأولى من البداوة أن الفرد من القبيلة لا يحس إحساسا قويا أنه فرد مستقل بذاته ، وانما يغلب عليه الاحساس بأنه جزء من قبيلة ، يحيا بحياتها و يموت بموتها ، و يظهر هذا ظهورا بيّناً حين تقرأ الشعر الجاهلى فترى فيه أن شخصية الشاعر اندمجت فى قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص ، وتتبين ذلك بجلاء فى معلقة عمرو بن كلثوم — وقلَّ أن تعثر على شعر من أشعار الجاهلية ظهرت فيه شخصية الشاعر ، ووصف مايشعر به وجدانه ، انما هو كثير التحدث عن قبيلته وأخبارها وأفعالها .

وفى هذا الدور لا يكون للأخلاق مقياس إلا العرف ، فليس للفرد رأى شخصى يقوم به الشىء ليحكم عليه بأنه خير أو شر بل ليس له إلا أن يستحسن ما استحسن قومه و يستقبح ما استقبحوا ، فهو لا يأتى بعمل أو يتجنب عملا بناء على تفكير منه ووزن له ، بل لأن قومه يأتونه أو يجتنبونه .

فاذا ارتقى الناس عن هذا الدور شعر الفرد بأنه — وان كان عضوا فى مجتمع — فله شخصيته ، وأن نفسه مستقلة عن قومه ،

وأن له مصالح شخصية كما أن لقومه مصالح ، وأن عقله من الاستقلال بحيث يستطيع ألا يخضع للعرف خضوعا أعمى ، بل فى قدرته أن يزن الأعمال فيحكم عليها بالخير أو الشر وان خالف العرف .

نرى هذا فى التاريخ دائما ، فعند نهوض كل قوم وأخذهم بحظ كبير من الرقى يظهر أفراد يخرجون على التقاليد الموروثة المتعارفة اذا رأوها ضارة ، ويزنون الأشياء وزنا جديدا ، فيعلنون استحسانهم لأشياء يستهجنها عرفهم ، ويستقبحون أشياء يستحسنها العرف ؛ وينتشر رأيهم شيئا فشيئا حتى يميل الناس اليه ، ويقتنعوا به ، وبهذا تنكسر قوة العرف — حصل هذا فى عصر السوفسطائيين فى اليونان ، وفى عصر النهضة فى روما ، وفى أيام الثورة الفرنسية فى فرنسا وهكذا .

فى هذا الدور يشعر الانسان أن العرف غير صالح لأن يكون مقياسا ، وأن له من القوة ما يمكنه من تقويم الأشياء والحكم عليها ، ولكن يتساءل بم يقومها ؟ كيف يعرف الخير والشر ؟ ما الذى يضعه محل العرف ليعرف الحق من الباطل ؟ وعند ذاك يأتى دور البحث العلمى .

الوجدان — أجاب قوم عن هذه الأسئلة المتقدمة بأن فى كل انسان قوّة غريزية يميز بها بين الحق والباطل، فكل انسان اذا عُرِض عليه عمل تلهمه هذه القوّة أنه خير أو شر، وهذه القوة مُنِحناها لنميز بها بين الخير والشر كما منحنا العين لنبصر بها، والأذن لنسمع بها، والحكم الأخلاقى يعتمد على هذه القوّة فيَصْدُرُ بالاستحسان أو الاستقباح، وقد ذهب بعض العلماء الى أن أساس هذا الحكم هو "الوجدان" ويعنون به شعور الانسان الطبيعى بالارتياح من العمل أو النفور منه كالارتياح والنفور الذى يشعر به الانسان عند رؤيته شيئا جميلا أو قبيحا، فعند ما توسوس له نفسه بكذب أو بسرقة يشعر باشمئزاز طبيعىّ من إتيان ذلك فيحكم عليه بأنه شرّ، وكذلك عند ما يسمع خبرا باغاثة ملهوف أو إحسان الى فقير أو عدل فى حكم يشعر بارتياح طبيعىّ فيحكم على ذلك بأنه خير.

وقد تصاب هذه القوّة الوجدانية بمرض فترى الخير شرّا والشرّ خيرا كما تصاب كل حاسة بالمرض، وكما تخطئ القوّة العقلية، فكما أنا لو أعطينا عددا من التلاميذ مسائل حسابية فبعضهم يخطئ فى حلها وبعضهم يصيب ولكنا نعرف أن هؤلاء أصابوا وهؤلاء أخطؤا كذلك يختلف الناس فى صحة الوجدان ومرضه،

فبعضهم يحكم بالشرّ على ما يحكم عليه الآخر بالخير، ويمكن أن نعرف المخطئ من المصيب ، وسيأتى توضيح ذلك عند الكلام على مذهب اللّقانة .

العقل والاستدلال — ويرى علماء آخرون أن ليس فى الانسان قوة طبيعية يحكم بها على الأعمال، إنما نحكم عليها بالعقل والاستدلال، فليس فى الانسان حاسة غريزية يدرك بها الخير والشرّ، ولكن يحكم عليها بمقتضى تجاربه، فالناس عملوا أعمالا، ولاحظوا ما ينتج عنها، فرأوا نتائجها حسنة فحكموا بخيريتها، وعملوا أعمالا رأوا نتائجها سيئة فحكموا عليها بالشرّ، وليست القوة الأخلاقية التى نعرف بها الخير والشرّ إلا عقلنا وتجاربنا ، واستمرار الأمة فى تجاربها يفضى بها الى تعديل آرائها فى الأشياء، والسبب فى تغير آراء الأمم والأفراد فى الحكم على الأشياء هو اتساع مداركها بكثرة تجاربها وملاحظاتها واستدلالها ، وسيتضح ذلك عند الكلام على المذاهب الأخلاقية .

من هذا ترى أن الحكم الأخلاقى تدرّج بتدرّج الناس فى الرقىّ، فكانوا أوّل أمرهم لا مقياس لهم إلا العرف ثم فهموا أن العرف لا يصح أن يكون مقياسا، فجاء بعد ذلك دور البحث والتفكير العلمىّ .

وكذلك ترى أن العرف — أولا — كان هو المقياس ولكنه مقياس خاص بالأمة وحدها ، اذ كل أمة لها عرفها ، فلما جاء دور البحث العلمى أصبح الحكم الأخلاقى ينبنى على أسس عالمية، وبعبارة أخرى أصبح ينبنى على مبادئ عامة تصلح لكل أمة فى كل عصر، وسنوضح تلك المبادئ والمذاهب المشهورة التى أدى اليها البحث فى الفصل التالى .

تربية الحكم الأخلاقى — قوة الحكم الأخلاقى ترقى برقى الانسان ، فهو يولد وعنده جرثومة الحكم الأخلاقى ، تولد معه حسب قانون الوراثة .

ثم ينشأ فى أسرته فيراهم يمدحون أشياء ويذمون أخرى ويكافئون على أعمال ويعاقبون على أخرى ، فينمو عنده الحكم الأخلاقى بذلك ، ويتبع أسرته فى مدحها وذمها ، ويستحسن من الأشياء ما مدح عليه ، ويستهجن ما ذم من أجله ، ثم اذا نما شعر بأنه مضطر أن يتبادل مع إخوته وأخواته الأخذ والعطاء ، فيوجد عنده الشعور بضرورة تبادل المنافع ، فهو يعطيهم مما يناله ليعطوه مما ينالون ، فيرقى عنده بذلك الحكم الأخلاقى .

فاذا خرج الى العالم وتبادل مع الناس المعاملة ورأى حاجته الى معونتهم وأدرك أنه لا يعيش سعيدا بينهم إلا بمراعاة قوانين

وتقاليد اتسع عنده مجال الحكم الأخلاقى ، فاذا هو تقدم فى العلم ساعده علمه على إضاءة السبيل له يميز بين الحق والباطل ، فكثير من الأعمال الضارة او الخرافية سببه الجهل بالقوانين الطبيعية ، فاستقبال العامة للخسوف والكسوف بالضرب على الأوانى النحاسية أو الحديدية مثلا سببه الجهل بأسباب الخسوف والكسوف ، ومعرفتنا بشىء من الجغرافيا الطبيعية أو الهيئة يبين أن هذا العمل وأمثاله خرافة لا أساس لها ، ومعرفتنا بشىء من قوانين الصحة يغير نظرنا الى كثير من الأعمال ، وانتشار العلم عن النبات والحيوان والمرض والصحة فى أية أمة يجعل كثيرا من أفرادها يخرجون على العرف المألوف الذى لايتفق ونظريات العلوم ، والعلم يزيد الانسان شعورا بشخصيته وبأن له قوة على الحكم على الأشياء ، وأنه ليس أسيرا للعرف والتقاليد .

كذلك دراسة علم الأخلاق ، واستعراض النظريات التى ينبنى عليها الحكم الأخلاقى ، ونقدها ، وبيان ما يصح منها وما لا يصح ، وبيان ما كان الناس عليه أيام بداوتهم فى عرفهم وتقاليدهم ، وكيف كانوا يحكمون على الأشياء ، وما وصلوا إليه من الرقى ، وكيف تغير نظرهم الى الأشياء برقيهم . كل هذا يجعل الانسان أصح حكما وأصدق نظرا .

الفصل الرابع

مذاهب علم الأخلاق ونظريّاته

أشرنا فى الفصل الماضى الى أن الناس فى أحكامهم على الأشياء يراعون مقياسا خاصا ، فيحكمون على الشىء بأنه طويل أو قصير ويحتكمون فى ذلك الى "المتر" مثلا، ويحكمون على الشىء بأنه خفيف أو ثقيل ويحتكمون فى ذلك الى "الأقة" أو "الرطل" أو نحوهما، فما الذى نراعيه فى أحكامنا الأخلاقية ؟ إنا نقول : الصدق خير والكذب شرّ فما هو المقياس الذى عرفت به ذلك ؟ واذا عرض موقف حَرِج وأردت أن أعرف أأصدق فيه أم أكذب ، وتجادل المتجادلون فيه بين محبّذ للصدق ومحبّذ للكذب فالى أىّ المقاييس نحتكم ؟ والناس يقولون : إن الصدق والعدل والشجاعة والعفة فضائل، وأضدادها رذائل، فما الشىء الذى فيها حتى جعلها فضائل أو رذائل؟ وبأىّ مقياس قاس الناس حتى حكموا هذا الحكم ؟

هذا الموضوع هو الذى يسمى "المقياس الأخلاقى" ولم يتفق الباحثون فيه ولم يجيبوا عن الأسئلة الماضية جوابا واحدا، بل تعددت فيه المذاهب، ونحن نذكر أهمها :

(١) مذهب السعادة(١)

لما بحث العلماء فى مقياس الخير والشرّ بحثا علميا ذهب كثير منهم الى أن هذا المقياس هو "السعادة" وقالوا : إن السعادة هى الغاية الأخيرة للحياة، وهى التى تحرك جميع الناس للعمل، فاذا حللت عمل أىّ إنسان رأيت أنه إنما يطلب بعمله "السعادة" فالطالب يتعلم ، ومحب المال يجمع ، والرجل يتزوج ، والعالم يؤلف ، والكاتب يكتب ، والقاضى يقضى ، والصانع يصنع ، وكل هؤلاء لو حللت أغراضهم من أعمالهم وجدت أن الغاية الأخيرة التى يرمون اليها هى تحصيل السعادة .

ولكن السعادة كلمة غامضة ، وإنما يعنى بها أصحاب هذا المذهب "تحصيل اللذة وتجنب الألم" فهم يقولون : إن الانسان فى أعماله : من سعى لتحصيل الرزق ، وتحصيل العلم ، ومداواة مرض ، وأكل وشرب ، وتأليف ، ونوم ، ورياضة ، إنما يطلب

(١) يسمى هذا المذهب بالانجليزية Hedonism

أحد شيئين : إما تحصيلَ لذة، أو تجنبَ ألم، ولا يمكن ان يخرج عمل يعمله عن هذين الغرضين .

واللذة هى مقياس العمل ، فالعمل يقوَم بحسب كمية اللذة التى ينتجها، فيقال: إن هذا العمل خير وذاك شر لأن الأول ينتج من اللذة أكثر من الألم، والثانى ينتج ألما أكثر من اللذة .

وليس مذهب السعادة يقول: ينبغى أن يطلب الانسان السعادة (اللذة) فحسب، لأن ذلك من طبيعة الانسان، وكل الناس إنما يحثون وراء اللذة، وكل عمل لا يخلو من لذة، وإنما يقول: ينبغى أن يطلب أكبر سعادة، أو بعبارة أخرى أكبر لذة، فاذا خيّر بين جملة أعمال ينبغى أن يطلب أكبرها لذة ، والانسان المفرط فى شهواته لا يلام لأنه يطلب اللذة، فكلنا يطلب ذلك ، ولكن يلام لأن إفراطه فى الشهوات يسبّب من الآلام أكبر مما يسبب من اللذائذ ، والذى كذب إنما يلام لأنه حصّل بكذبته لذة صغيرة وأنتج ألما كبيرا وهكذا .

وقال أصحاب هذا المذهب : إن اللذائذ يمكن أن تقارَن ، ويجب عند تفضيل لذة على لذة مراعاة الشدّة والمدّة، وكذلك الألم، لأنه يعتبر لذة سالبة، فاذا سئلت عن عملين أيُّهما أفضل:

بناء مستشفى مثلا، أو التصدّق على الفقراء بالمال ؟ فاحسب حساب ما ينتُج عن كل من اللذائذ، ومدّة هذه اللذائذ، فاذا كان الأوّل ينتج لذة بمقدار ٨٠ مثلا فى مدّة عشر سنوات، والثانى ينتج ٢٠٠ فى مدّة سنتين، كان العمل الأوّل هو الواجب، لأن لذته مع مراعاة مدّتها أكثر وهكذا .

ولكن اذا قلنا : إن السعادة هى الغاية الوحيدة للانسان ولا شىء غيرها، وأنها هى المقياس الذى نقيس به العمل لنعرف أخيرٌ هو أم شرٌّ، فسعادةَ مَنْ نريد ؟

هل ينبغى أن يطلب الانسان أكبر سعادة لشخصه هو، فالعمل خير اذا كان يسبب للعامل نفسه لذة أكبر من الألم، وشرّ اذا كان ينتج لنفسه ألما أكثر من اللذة ؟

أو ينبغى للانسان أن يطلب اللذة للعالَم الذى يعيش فيه، فالعمل خير اذا كان ينتج لذة للناس أكبر مما ينتج من الألم — ولو كان ينتج للعامل نفسه ألما أكبر — وشر اذا كان ينتج للناس ألما أكبر ؟ هذان مذهبان للقائلين بالسعادة :

(أ) مذهب السعادة الشخصية . (ب) مذهب السعادة العامة، ويسمى أيضا مذهب المنفعة .

(أ) مذهب السعادة الشخصية(١)

هو المذهب القائل : إن الانسان ينبغى أن يطلب أكبر لذة لشخصه ، ويجب أن يوجه أعماله للحصول عليها .

فعلى هذا المذهب اذا تردّد إنسان بين عملين ،أو تردّد فى عمل أيعمله أم يتركه ، فليحسب ما فيه من اللذائذ والآلام لشخصه ويوازن بينهما ، فما رجحت لذائذه فخير، وينبغى فعله ، وما رجحت آلامه فشرّ وينبغى تركه ، وما تساوت فيه اللذائذ والآلام كان فيه مخيّرا .

وقال أصحاب هذا المذهب : إن كل إنسان يجب أن يبحث وراء لذائذه هو وسعادته ، ويعمل ما يوصله الى ذلك ، والعمل الذى يوصل الى تلك الغاية أو يقربه منها يكون خيرا .

ومن أكبر زعماء هذا المذهب فى العصور القديمة "أبيقور"(٢) ويرى أن ليست تقاس الأعمال باللذات والآلام الوقتية فحسبُ ،

(١) يسمى هذا المذهب Egoistic Hedonism

(٢) أبيقور Epicurus فيلسوف يونانى (عاش من سنة ٣٤١ — ٢٧٠ قبل الميلاد) وقد أسس مدرسة فى أثينا سنة ٣٠٦ ق م يعلم فيها مذهبه ، واستمرت أكثر من ستة قرون .

بل الواجب أن يرمى الانسان بنظره على جميع حياته، ويحسب ما يستتبعه العمل من لذة وألم فى الحياة، فشرب الدواء المر يسبب ألما ولكن لأنه قد يُذهب ألما أكبر منه — وهو ألم المرض — يكون خيرا — والعاقل ينبغى أن يرفض لذة حالّة للحصول على لذة أكبر منها مؤجلة، ومن أجل هذا فضّل "أبيقور" اللذة العقلية على اللذة الجسمية، فان اللذائذ الجسمية سريعة الزوال لا تعد شيئا اذا قيست بتلك اللذة الباقية — لذة العقل وتحصيل العلم — التى بها تطمئن النفس، ومنها يتخذ الانسان عدّة لحوادث الدهر، وصروف الزمان .

وقال : إن خير اللذائذ هدو البال وطمأنينة النفس، وأن سعادة الانسان تعتمد على حالته النفسية أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية، فليس المال الكثير والجاه الكبير ونحو ذلك يعين على السعادة أكثر مما تعين صفات الانسان الخلقية والعقلية، ومع ذلك فقد قال "أبيقور" : إن اللذائذ الجسمية الطاهرة ليست محرّمة، ولا مرذولة، ولا ضرر على العاقل من أخذ حظه منها من غير إفراط .

وعلى هذا المذهب إنما كانت الفضائل فضائل لأنها تسبب للعامل لذة كبرى، فالعفة مثلا فضيلة، والفجور رذيلة، لأنه

لو دقق فى حساب ما يجده العفيف من اللذة فى رضائه عن نفسه، وبعده عن الآلام التى ينتجها الفجور، واحترام الناس له، وثقتهم به، لوجد أنه يَرْجح ما يجده الفاجر من لذة وقتية، يتبعها ألم النفس، وفقد الثقة، وتعريض الصحة والمال والشرف للضياع، وهكذا القول فى الصدق والكذب، والأمانة والخيانة .

وقد غلط بعض النـاس ففهموا أن مذهب "أبيقور" يدعو الى الانهماك فى اللذات الجسمية والجرى وراء الشهوات ، حتى أطلقوا كلمة "أبيقورى" على الفاجر المنهمك فى شهواته، مع أن تعاليم أبيقور بعيـدة عن ذلك، وقد ندّد هو نفســه فى بعض كتبه بمن يفهم من قوله هذا الفهم السقيم .

[وفى العصور الحديثة قال بهذا المذهب "هُوبْز" الفيلسوف الانجليزى (١٥٨٨ — ١٦٧٩ م) وبنى مذهبه الأخلاقىّ على أبحاث نفسية، فكان يرى أن الانسان مخلوق وفى طبيعته حبه نفســه، والعمل لإسـعادها، وأن أساس أعمـاله الأَثَرَةُ، (حب الذات) وليس يعمل عملا إلا من أجل نفسه، وليس حبه جاره أو صديقه إلا ضربا خفيا من ضروب حب النفس . نعم إنه قد يعمل الخير لغيره ، ولكن الباعث الحقيقىّ له على عمله هو حبه نفسه، وطلبه اللذة لها أو دفع الألم عنها، وكل ما يسمى "إيثارا" أو نفعا للناس

ليس — بعد الفحص الدقيق — إلا نتيجة رغبة فى منفعة شخصية يراد تحصيلها عاجلا أو آجلا ، ومن أجل هذا قال : يجب أن نساير طبيعة الانسان فلا نكلفه ما ليس من طبعه ، بل نأمره أن يأتى من الأعمال ما فيه أكبر لذة له و يتجنب ما فيه أكبر ألم له].

وعيب هذا المذاهب (مذهب السعادة الشخصية) أنه يجعل صاحبه أَثِرًا (أنانيا) لاينظر فى أعماله إلا لنفسه ، مات الناس أوعاشوا. انتفعوا أو تضرّروا ، اذا رغب فى وصول منفعة للناس فانما ذلك لأنها تجر المنفعة اليه ، واذا تألم من شرّ نال أحدا فانما يكون لأن جزءا من الشرّ يناله هو ، وفى الناس فى كل زمان قومٌ يسيرون فى حياتهم العملية على هذا المذهب وان لم يسمعوا به ولم يعرفوا شيئا عنه ، تراهم فى كل طبقة من طبقات الناس ، فى الأغنياء والصناع والعمال والموظفين والتجار ، أولئك لا يلاحظون فى أعمالهم إلا أنفسهم ، ينظرون الى غيرهم من الناس كما ينظرون الى متاع يستخدمونه لمصلحتهم ، عندهم الانسانية والوطنية والتضحية ونحوها سخافات ، إنما الفضيلة فى نظرهم أن يجثوا وراء لذتهم و ينشدوا مع الشاعر :

« إذا مِتُّ ظَمآنا فلا نَزَلَ القَطْرُ »

وقد ردّ كثير من العلماء على «هوبز» فقالوا : إن فى الانسان عاطفة حب الناس بجانب عاطفة حبه النفس ، وإن نفوسنا

تهتزّ عطفا على النـاس ، ورحمة بالمنكوبين ، وغضبا على المجرمين ، ويحنّ الوالدان على أولادهم حنينا قد يصـل الى حدّ أن يتمنوا أن يَفْدوهم بأنفسهم ، فليس من الصواب – إذن – أن يكون مقياس الأخلاق لذة العامل وحده ، وأن تكليفنا له بمراعاة الناس والعمل لخيرهم لا ينافى طبيعته .

وقد جاءت الأديان من نصرانية و إسلام فأوجبت التضحية عندالحاجة ، وحبّبت الى الناس الايثار والاحسان ، فكان فى انتشار هذه التعاليم ما عاق هذا المذهب عن الانتشار ، فإن الشرف والتضحية والايثار لا تتفق مع الأَثَرة وحب النفس .

وقـد ٱعتُرض على مذهب السـعادة الشخصية هـذا بجملة اعتراضات :

(١) إذا كانت اللذة الشخصية هى المقيـاس فمن الصعب إن لم يكن من المستحيل – عدّ الاحسان فضيلة ، مع إجمـاع الناس على عدّه كذلك .

(٢) هذا المذهب يستلزم احتقار من ضحوا بلذتهم وحياتهم لمنفعة الناس ، وتكريم من ضحى بسعادة الناس وحياتهم لمصلحته هو – ولا قائل بهذا –

(ب) مذهب السعادة العامة[١] أو مذهب المنفعة

هذا المذهب يقول : إن ما ينبغى أن يطلبه الانسان فى الحياة ليس سعادته الشخصية ، وإنما ينبغى أن يطلب أكبر سعادة للناس، بل لكل حساس، ولتوضيح ذلك نقول :

عند ما نريد الحكم على عمل بأنه خير أو شر يجب أن ننظر فيما ينتجه العمل من اللذائذ والآلام لا للعامل نفسه — كما يقول المذهب الأول — بل لكل الناس، بل ولكلّ حيوان يتلذذ أو يتألم من هذا العمل، ثم نجمع ما ينتجه العمل من اللذائذ وما ينتجه من الآلام[٢]، فإن رجحت لذاته آلامه فخير وإن رجحت آلامه لذاته فشرّ، فاذا سُئلتَ — مثلا — هل يحسن أن نتعلم البنات مع البنين فى مدارس واحدة أولا، فاحسب حساب ماينتجه ذلك من الفوائد والمضارّ للأمة جميعها، وقارن بينهما، فما رجح فاحكم بمقتضاه، وإذا سُئلتَ هل من الحق أن تذبح الحيوان لنأكله فاحسب حساب ألم الحيوان من ذبحه، وتلذذ الآكلين من أكله، وما يستفيده

(١) يسمى هذا المذهب (Universalistic Hedonism) أو (Utilitarianism)

(٢) مع ملاحظة أن الألم ليس إلا لذة سالبة .

الآكلون صحياً، وما تستفيده الأمة من صحة أبنائها وهكذا، وقارن بين اللذائذ والآلام، ثم احكم على العمل بأنه خير أو شرّ وهكذا .

وإذا خُيِّرتَ بين جملة أعمال فاحسب حساب ما ينتج كل من اللذائذ والآلام، فأيها زاد رجحان لذائذه على آلامه فهو الخير، وهو الذى ينبغى أن يعمل .

وسعادة الجميع يجب أن تكون مطمح نظر كل إنسان ، لا سعادته هو وحده — والفضائل إنما عدّت فضائل لأنها تنتج للناس لذة أكثر من الآلام — فهى فضائل ولو آلمت بعض الأفراد، بل ولو آلمت العامل نفسه، وكذلك كانت الرذائل رذائل لأن آلامها للناس ترجح لذائذها، فهى رذائل ولو أفادت العامل نفسه .

فالصدق — مثلا — إنما كان فضيلة لأنه يزيد سعادة المجتمع وبه يرق ويبق ، ذلك لأننا محتاجون فى الحياة الى طبيب يرشدنا الى ما فيه حفظ الصحة، والى مهندسين نعتمد على أقوالهم فى بناء الجسور ونحوها ، والى كيمائى يبين لنا خواص الأجسام ، وإلى مدرّس يثقف عقول المتعلمين بما ينفعهم ، ولولا الصدق ما كان لنا أن نثق بأقوال هؤلاء ولا ننتفع بآرائهم ، فلما رأينا ما ينجم عنه

من السعادة للمجتمع حكمنا بأنه فضيلة، وأوجبنا على الأفراد أن يصدُقوا، وإن كان فى الصدق ألم لبعض الناس .

ورشوة القاضى — مثلا — إنما كانت رذيلة لأن القاضى إذا ارتشى أطلق سراح المجرم، وهذا يشجعه هو وأمثاله على ارتكاب الجرائم، لاعتقاده أنه يستطيع الفرار من العقوبة بالرشوة، وبذلك تكثر المظالم، ويضيع كثير من الحقوق . وفى هذا آلام كثيرة للمجتمع، فحُرِّمت وإن انتفع بها القاضى المرتشى .

وهكذا الشأن فى جميع الأعمال، فإن أردت الحكم على عمل بأنه خير أو شر فابحث عما يجلبه من اللذائذ والآلام للمجتمع، مع بعد النظر، ودقة البحث، وتجرّدك من الهوى ومن تحيزك لنفسك، ثم وازن بين لذائذه وآلامه .

ووزن الأعمال بهذا الميزان بطىء، لأنه يتطلب حسابا دقيقا، ونظرا بعيدا، إلا أن النتيجة موثوق بصحتها — على أن مما يُسهّل عملية الوزن والمقياس أن أصول الفضائل والرذائل قد وزنت بهذا الميزان وحكم عليها بالخير أو الشر مثل الكرم فضيلة، والبخل رذيلة، والصدق خير، والكذب شر، فإن أردنا أن نحكم على جزئية من جزئياتها فلنرجع الى أصل من تلك الأصول التى حكم

عليها، كأن يكون العمل من قبيل الصدق أو الكذب، ولا حاجة حينئذ الى هذا المقياس ، وإنما نحتاج اليه فيما لا يرجع الى تلك الأصول، كالعادات التى اختلف الناس فى استحسانها واستقباحها، وكالمسائل التى لاترجع الى هذه الأصول، فإن أداك بحثك الدقيق الى أن آلام العمل أكثر من لذائذه فاحكم بشرّه وإن حكم الناس عليه بالخير، وإن رأيت من الأعمال ما لا ضرر فيه أو ما آلامه أقل من لذائذه فاحكم بأنه خير وإن عدّه الناس جريمة، ويسمى هذا المذهب « مذهب المنفعة » ومن أكبر دعاته الفيلسوف الانجليزى بنتام (١٧٤٨ — ١٨٣٢ م)(١) وجون ستوارت ميل (١٨٠٦ — ١٨٧٣ م)(٢) .

واللذة التى يريدها أصحاب مذهب المنفعة تشمل اللذات الحسية والمعنوية، الجسمية والعقلية، بل قد صرّحوا بأن اللذات

(١) بنتام Bentham عالم انجليزى اشتهر ببحثه فى الأخلاق والقانون ، وهو من أكبر دعاة مذهب المنفعة وربما عد مؤسسه ، وهو القائل بأن « مقياس الخير والشر أكبر لذة لأكبر عدد » وقد ألف فى أصول القوانين كتابه الشهير (أصول القوانين) وطبقه على مذهب المنفعة وترجمه المرحوم أحمد فتحى باشا زغلول .

(٢) ميل Mill فيلسوف انجليزى كتب فى المنطق والاقتصاد السياسى والسياسة وكتب رسالة فى الحرية عربها طه افندى السباعى ورسالة فى مذهب المنفعة ألقاها سنة ١٨٦٣ وهو يعدّ من أكبر مؤسسى هذا المذهب .

النفسية أفضل من اللذات الجسمية — وكلما رقى الانسان طمح الى أشرف اللذات وأرقاها، فكما أن سعادة الانسان تختلف عن سعادة الحيوان كذلك تختلف سعادة العاقل عن سعادة الجاهل، واللذائذ الوضيعة سهلة المنال ولذلك كان حصول الجاهل على لذاته أيسر:

واذا كانت النفوس كبارا تَعِبَتْ فى مُرادها الأجسامُ

قالوا: والواجب ألا يبحث الانسان عن أكبر لذة بل عن أشرف لذة، وعن خير أنواعها، ولا يتيسر ذلك له إلا بأن يوسع فكره، وأن يكون عنده من حب الخير للناس ما عنده لنفسه.

هذه هى خلاصة هذا المذهب، وقد وجهت اليه اعتراضات كثيرة أهمها:

(١) أنا لو اتبعنا هذا المذهب وجب ألا نحكم على عمل بأنه خير أو شرّ إلا بعد أن نحسب كل ما ينشأ عن العمل من لذة وألم لكل إنسان، ولكل كائن حساس، وبعبارة أخرى نحسب حساب ما يناله الأقارب والأباعد من اللذائذ والآلام، وما يناله الأحياء وأعقابهم وهكذا، واذا كان كذلك فمن الصعب الوقوف على نتائج العمل وحسابها، فقد نرى عملا ينفع أمتنا ويضر الأجانب،

وقد ينفع معاصرينا ويضرّ الأجيال المستقبلة، والأجيالُ المستقبلة كثيرة العدد، من أجل هذا ونحوه يصعب الحساب ويدق البحث حتى لا نستطيع أن نحكم على بعض الأعمال بأنها خير أو شر، فمثلا هل تنتفع الأمة الآن بما عندها من مناجم اذا كان ذلك يضرّ أبناءها ؟ وهل تستدين الحكومة اذا خيف أن يكون الدَّين حملا ثقيلا على الخلف ؟ كل ذلك من الصعب تصفية حسابه على هذا المذهب .

(٢) إن هذا المذهب يدور حول اللذة والألم ويتخذ لذائذ الناس وآلامهم مقياسا، ولكنا نرى أن اللذة والألم تختلف باختلاف الأشخاص، فقد يرى أحد فى عمل لذة كبيرة ويرى فيه آخر لذة أكبر أو أقل، فيترتب على ذلك اختلاف الناس فى الحكم بالخير أو الشرّ، كما يترتب عليه ارتباك فى حساب مقدار اللذة والألم، فمثلا قد يسمع جمع من الناس أصواتا موسيقية فيطرب منها بعضهم طربا كبيرا بينا نجد بجانبهم من لم يأبَهْ لها ولم ينفعل بها أىّ انفعال، فكيف بعد ذلك نستطيع تقدير اللذائذ والآلام ونتخذها مقياسا تقاس به الأعمال .

(٣) إن هذا المذهب يجعل الناس باردين لا ينظرون فى الأعمال الى جمالها وشرفها، والباعثِ الشريف الذى بعث عليها،

بل لا ينظرون إلا إلى لذاتها وآلامها ، فضلا عن أن القول بأن الحياة لا غاية لها إلا اللذة والألم يحط من شرف الانسان، ولا يليق إلا بالعجماوات .

وقد أجاب أنصار هذا المذهب عن هذه الاعتراضات،وطال بين الباحثين فيها الجدال، مما لا يتسع له هذا المقام .

ومع هذا فإنا نستطيع أن نذكر هنا أن هذا المذهب من أكثر المذاهب انتشارا فى العصور الحديثة، وهو أرقى من مذهب السعادة الشخصية، وكان له فضل كبير فى إيقاظ العقول، ومطالبتها أن تكون غير متحيزة فى أحكامها ، فقد طلب من الشخص أن ينظر إلى لذائذ الناس كما ينظر الى لذاته هو ، وطالب المتشرعين ألا ينظروا عند تشريعهم إلى طبقة خاصة وأفراد معينة، بل ينظروا إلى خير الناس كافة، فما يعدّ جرائم يعاقب عليها القانون وما لا يعدّ انما يلاحظ فيه لذائذ المجموع وآلامه ، والعقوبات التى توضع بإزاء الجريمة يجب أن يلاحظ فيها أنها تأتى بلذائذ للناس أكبر مما تسبب من الآلام وهكذا .

(٢) مذهب اللَّقَانَة (١)

(البصيرة)

رأى قوم أن مذاهب السعادة أو مذاهب اللذة غير صحيحة، وأن اللذة وإن كانت أحيانا دليل الخير فإنها فى كثير من الأحيان باعث على الشرّ، فلا يصح — بعدُ — أن تكون غاية نطلبها ونقيس الأعمال بها، وإنه لمن الضعة أن تُسيِّرَ الانسانَ فى الحياة اللذةُ فقط وألا يَسِيرَ فى أعماله إلا طلبا للذة أو تجنبا لألم، وألا يبعثه على فعل الخير الا توقعه ما فيه من لذة، وألا يُجَنِّبَه الشرّ إلا حسبانه ما فيه من ألم.

وقالوا: إن الحق أننا نعرف الخير والشرّ من غير أن نقيسه باللذة والألم، وأننا نحكم على الصدق والعدل والشجاعة بأنها خير وعلى أضدادها بأنها شرّ لا بالنظر الى نتائجها وما يتبعها من نفع وضرّ، ولكن لصفات ذاتية فيها، فالصدق خير فى ذاته، والكذب شرّ فى ذاته، من غير أن نحسب حساب ما ينتج عنهما.

---

(١) وضعتُ كلمة اللقانة ترجمة لكلمة (intuision) وأصل معنى الكلمة الانجليزية النظر الى الشىء، ثم أطلقوها فى علم الأخلاق على الحاسة التى يدرك بها الخير والشر، وكلمة اللقانة من لَقِنَ الشىء، اذا فهمه فى سرعة، يقال: فتى لَقِنٌ أى سريع الفهم فاستعملناها فى هذا المعنى.

وأن فى كل انسان قوة غريزية باطنة، بها يميز بين الخير والشر بمجرد النظر، مُنِحْناها كما منحنا العين لنبصر بها والأذن لنسمع بها، فكما نستطيع إذا نظرنا إلى شىء أن نقول : إنه أبيض أو أسود (من غير تعليل) وأنه طويل أو قصير، وإذا سمعنا صوت موسيقى أن نقول : إنه جميل أو قبيح ، كذلك نستطيع إذا رأينا عملا من الأعمال أن نقول : إنه خير أو شر .

وقد تختلف هذه القوة اختلافا قليلا باختلاف العصور والبيئات ، ولكنها متأصلة فى نفس كل إنسان ، فهو إذا نظر الى شىء حصل عنده نوع من الإلهام يعرّفه قيمته فيحكم عليه بأنه خير أو شر — ومن أجل هذا اتفق أكثر الناس على عدّ الصدق والكرم والشجاعة والعدل فضائل ، كما اتفقوا على عدّ أضدادها رذائل ، ألا ترى الى الأطفال يحكمون على الكذب بأنه شر من غير إعمال فكر ، ويحتقرون السارق ، ويعدّون السرقة جريمة ولو لم يكن لهم من النظر البعيد ما يرون به الآلام التى تحيق بالمجتمع من وراء الكذب أو السرقة ، وكذلك القبائل التى لم تأخذ بحظ من المدنية ، وليس عندهم نظر دقيق يقيسون به ما ينتج من اللذائذ والآلام يكادون يتفقون على الفضائل والرذائل .

هذه القوة التى فى طبائعنا نسميها «اللقانة» ونسمى المذهب القائل بها «مذهب اللقانة» .

وقد تصاب هذه القوة بالمرض فترى الخير شرًا والشرّ خيرا ، كما تصاب العين فلا تدرك بعض الألوان ، أو تحكم على الواحد بأنه اثنان ، وكما تصاب القوة العقليـة فتحكم أحكاما خطأ ولكن العين السليمة والعقل السليم يصححان هذا الخطأ كذلك اللقانة قد تخطئ ولكن اللقانة السليمة تدرك هذا الخطأ وتصححه .

ويمتاز هذا المذهب عن مذهب السعادة بنوعيه بأنه :

(١) يرى الفضائل فضائل فى جميـع الظروف ، وفى كل زمان ومكان ، وليس كونهـا فضيلة تابعا لغاية إذا وصلت إليها كان خيرا وإن لم توصل كانت شرًا .

(٢) إن الفضائل أمور بديهية ليست فى حاجة الى البرهنة على صحتها .

(٣) وأنها ليست محلا للشـك ، فمن المحال أن نرى يوما ما أن ضدّها هو الخير وأنها هى الشرّ .

وهـذه القوة فى طبيعـة كل الأنواع البشرية ، العـالى منها والسافل ، ولسنا نعنى أنها على درجة واحدة من الرقىّ ، وإنما نعنى

أنها طبيعية فى الناس جميعا كحاسة السمع والنظر، وإن اختلفت قوة وضعفا، وأنها ككل مَلَكات الانسان قابلة للترقية بالتربية .

وعلى الجملة فهذا المذهب يرى أن الانسان يجب أن يكون أرقى من أن تُسَيِّره اللذة والألم، وليس قانون الأخلاق وأوامره خاضعة لنتائج العمل، ولا لما فيه من اللذائذ والآلام، وإنما رُكّب فى أنفسنا ضمير يناجى الانسان ويأمره بالخير وبالواجب ، ثم إن هذا الخير أو الواجب قد يُثمر لذة وسعادة، وقد تسيّر الانسان الى حدّ ما رغبته فى اللذة وفراره من الألم ، ولكن هذا الضمير لا يخضع لذلك، بل قد يتطلب أحيانا أن يضحى باللذة والسعادة والحياة نفسها للواجب، والواجب واجب ولو منع لذة واستتبع ألما، والخير خير فى ذاته مهما كلف من المشاق، وإنه لحطّ من كرامة الانسان أن يمسك دائما ميزانا يزن به كل عمل قبل أن يُعمل ليرى ما ينتجه من لذائذ وآلام، فان هذا عمل التجّار . أما الأخلاقى فيجب أن يكون أشرف من ذلك ، يصغى لصوت ضميره، ويسمع لما يوحى إليه من أوامر ونواهٍ، وهذا هو مايشرّفه ويضعه فى أسمى مكان يليق به .

وممن ذهب هذا المذهب طائفة من الفلاسفة الأقدمين يسمون (الرُّوَاقِيِّين) وهم أتباع زِينُون . فيلسوف يونانى (٣٤٢—

٢٧٠ ق ٠ م) كان يعلّم أصحابه فى رواق مزخرف فى أثينا ، ومن ثم سمى أصحابه بالرواقيين (Stoics) وقد كان زينون معاصرا لأبيقور ومعارضا له فى تعاليمه ٠ فبينا يرى أبيقور أن الغاية من الحياة هى الوصول الى أكبر لذة ممكنة للعامل، وأنه يجب إحياء الشهوة وإرواؤها، كان زينون يرى أنه يجب ضبط النفس وقمع الشهوات وعمل الواجب للواجب ٠

كان هؤلاء الرواقيون يرون أن اللذة ليست هى الغاية للانسان، ولا هى بالخير دائما، وإنما الغاية نيل الفضيلة لأنها فضيلة ٠ وطلبوا من الناس أن يكفوا عن اتباع الشهوات وأن يمرّنوا أنفسهم على تحمل الآلام فى سبيل الفضيلة ٠

والرواقى لا يجعل أكبر همه أن يكون غنيا ولا متلذذا، إنما أكبر همه أن يعيش حكيما فاضلا ، فى أى حال كان، فى فقر أو غنى، وأن يستعمل ما حوله من الأشياء خير استعمال ، ومثّلوا الناس فى الدنيا بالممثلين على مراسح التمثيل، قالوا : إن منهم من يمثل المَلِك، ومنهم من يمثل السائل الفقير، ولسنا نُثنى على الأول لأنه مَثّل دور الملك ولسنا نعيب الثانى لأنه مَثّل دور الفقير، إنما نثنى على من أجاد دوره ملكا أو فقيرا ونعيب من لم يُجِدْ مِلكا أو فقيرا — كذلك الشأن فى الحياة، فالانسان يجب أن يمدح

أو يذم لإجادته فى عمله أو عدمها، لا لمنصبه الذى يشغله وماله الذى يملكه .

وضرب أحد رؤساء هذا المذهب وهو "إبِكْتِيتس" (٥٠ — ١١٥ ؟ ب م) مثلا لذلك من لاعبى الكرة، قال : إنهم لا يلعبون للكرة نفسها ولا يهمّهم مِلْكها ولا من ملكها، وإنما يمدح اللاعب لأنه يعرف كيف يلعبها وكيف يجيد رميها — يريد بذلك أن الأشياء الخارجية لا قيمة لها فى أنفسها، وإنما يمدح الانسان على حسن استعمالها لا على ملكها .

والغربيون الآن يطلقون «رواقى» على من اعتاد أن يقابل الأشياء بهدوء وطمأنينة على الرغم مما يحيط بها من خطر وآلام .

[ومن القائلين باللقانة فى العصور الحديثة «كَانْتْ»(١) فقد كان يرى «أن عقل الانسان هو أساس الأخلاق . وليس الانسان

(١) «كانت» فيلسوف ألمانى عاش من سنة (١٧٢٤ — ١٨٠٤ م) وكان يعيش عيشة دقيقة منظمة، فكان قيامه من نومه وشربه لقهوته وكتابته ومحاضرته وأكله ومشيه كل ذلك فى أوقات محدّدة، وكان جيرانه يعلمون أن الساعة يجب أن تكون الرابعة والنصف بالضبط حينما يرونه خارجا من منزله فى معطفه الرمادى وبيده عصاه يتمشى بين أشجار الزيزفون فى الشارع الذى سمى بعده «ممشى الفيلسوف» وكان يمشى هذا الشارع ثمانى مرات روحة وجيئة كل يوم فى كل فصول السنة، وإذا ساء الجو وأنذر السحاب بالمطر ترى خادمه العجوز يتبعه متأبطا مظلة كبيرة .

فى حاجة الى أن يتعلم أن العمل خير أو شرّ بواسطة الملاحظة أو التجربة، أو قياس ما ينتج عنه من لذائذ وآلام، ولكن العقل بطبيعته يرينا الخير والشرّ، فاذا عرض أمامنا عمل مّا فعقلنا يرشدنا إن كان خيرا أو شرا من غير عمليات حسابية، والعقل يأمرنا دائما أن نعمل ما نحب أن الناس يعملونه، فيأمرنا بالصدق لأننا نحب أن الناس يصدقون، وبتجنب الكذب لأننا نحب أن الناس لا يكذبون . ويجب أن نخضع لصوت العقل وأن نجعل إرادتنا تنفذ ما يأمر به وما ينهى عنه، واذا جرينا على هذا المبدأ دائما ولو خالف ميولنا وشهواتنا فقد أدينا ما علينا من الواجب وسرنا سيرا أخلاقيا »]

وقد اعترض على هذا المذهب (اللقانة)، القائل بوجود غريزة فى الانسان يميز بها الخير من الشرّ، كالحاسة التى يميز بها بين الألوان والأصوات :

(١) بأن الناس يختلفون فى الحكم على الأشياء اختلافا كبيرا حتى فى البديهات، ففى "سبارطة" كانت تعدّ السرقة عملا ممدوحا، ويعدّ القتل فى "داهومى" واجبا من الواجبات فكيف يقال بعد: إن الناس منحوا غريزة لادراك الخير والشرّ؟ مع أنا نراهم لا يختلفون هذا الاختلاف فيما يدرك بالحواس ، فلا يقول قوم

على الأسود أبيض، ولا يقول آخرون : إن الاثنين أكبر من الأربعـــة .

(٢) وبأنا نشاهد أنا فى كثير من الأعمال نتوقف عند الحكم عليها بأنها خير أو شر، ونحس أننا نحتاج فيها الى إمعان النظر واستعمال الروية ، ولو كان الحكم يرجع الى حاسة فينا ما احتجنا الى ذلك ، كما لا نحتاج الى إمعان النظر فى إدراك الأسود والأبيض والجميل والقبيح .

نظرة عامة الى هذه المذاهب

رأينا أن العلماء مختلفون فيما بينهم فى معرفة المقياس الأخلاق ، وأن كل مذهب من المذاهب لم يسلم من اعتراضات تَرِدُ عليـه ، ولم يخلُ كذلك من وجهة نظر صحيحة .

واذا ألقينا عليها الآن نظرة عامة رأينـا أن من الخطأ الواضح الجرى على مذهب السعادة الشخصية ، لأن الانسان لا يعيش وحده فى هذا العالم ، وهو مضطر فى معيشته الى التعاون مع أبناء جنسه ، فليس من الحق إذن أن يحث فقط وراء سعادته هو — فضـلا عن أنا اذا رجعنا الى الطبيعة الانسانية رأيناها تدعو الى عمل الخير للناس كما تدعو لعمل الخير لنفسه ، فكثير مما يعمله الآباء والأمهات

لأولادهم لا يعملونها لأنفسهم ، بل هم قد يبذلون أنفسهم لخير أولادهم ، وكأعمال الخيّرين الذين يقصدون الى إيصال الخير الى الناس مهما نالهم من الأذى — بل نحن فى أعمالنا اليومية نشعر بميل الى إغاثة الملهوف ، وإنقاذ المشرف على الخطر ، ومساعدة المنكوبين ونحو ذلك ولو لم يعد علينا من ذلك منفعة خاصة ، مما يدل على تأصل عاطفة الخير فينا ، وحب الناس ، وأن ليس شخصنا هو المحور الوحيد الذى تدور عليه الأخلاق .

وقد جاءت الأديان المختلفة لمحاربة "الأَثَرَة" والتفانى فى حب النفس ، وحببت الى الناس "الايثار" والعمل لخير الناس ، ووضعت المبادئ العامة لذلك نحو : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » و « أَحِبَّ لأخيك ما تحب لنفسك » ومدح الله قوما بقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ ولو كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ — نعم إن الطبيعة ركّبت فينا حب ذاتنا ولكنها ركبت فينا أيضا حب غيرنا ، وجعلت فى استطاعتنا ألا نغلو فى ذلك ، وأن نحب الخير لنفسنا وللناس ، ومن شاء أن يكون عظيما فليحب الخير أكثر مما يحب نفسه ويتبعه حيث كان .

ويقول "سبنسر" : إن الواجب ألا نبالغ فى الأثرة ولا فى الايثار ، لأنا اذا بالغنا فى أيهما أضعنا المقصود منه ، فلو أن كل إنسان

يبحث عن لذة نفسه فقط لكان ذلك شرّ طريق لحصول الانسان على لذائذه الشخصية، لاحتياج كل إنسان الى الآخرين، فلو قَصَرَ كل إنسان فى جمعية نظره على نفسه لتضرّر الجميع، وكذلك الايثار، فلو قصد كل انسان بكل عمل نفع الآخرين وأهمل نفسه لم يكن ذلك فى مصلحة الناس، لانه باهمال نفسه يضعف ويقعد عن عمل الخير للناس، وليس يستطيع غيره أن يقوم بمصالحه هو، لأنه أدرى بها — والنتيجة التى وصل إليها "سبنسر" أنه يجب أن نوفق بين الأثرة والايثار، وكلما رقيت أمة مالت لديها الأثرة والايثار الى الاتحاد وتكوين عنصر واحد — فالانسان فى الجمعية الراقية لا تتعارض فى نفسه الأثرة والايثار، بل يرى خيره فى حبه للناس ويرى نفسه عضوا من جسم، فائدة العضو تفيد الجسم وفائدة الجسم تفيد العضو.

— إذن — لا يصح أن نتبع المذهب القائل: بأن المقياس سعادة الشخص — كذلك لا نرى من الحق اتباع مذهب السعادة العامة وإن كان أرقى مما قبله وأشرف، لأن هذا المذهب يجعل الناس لا يحكمون على عمل إلا بعد حساب لذائذه وآلامه، فهو يجعل الحكم الأخلاقى عملية حسابية، والفضيلة ليست فضيلة فى ذاتها، وإنما هى فضيلة لأنها تنتج لذة أكبر، وهذا يفقدها

ما فيها من جمال وتقديس ، واتباع هذا المذهب يجعل الناس جامدين ليس لديهم الشعور القوى نحو الفضيلة، إنما ينظرون الى النتائج الجافة للأعمال ، فضلا عن أنه يترك تقدير ما ينتج عن العمل من اللذائذ والآلام الى الشخص نفسه، والشخص عرضة لأن يخطئ فى الحساب، خصوصا وهذا المذهب يتطلب بُعْدَ النظر وحساب النتائج القريبة والبعيدة معا، وكثيرا ما يخدع الانسان نفسه فى حساب اللذائذ والآلام اذا رأى فى العمل مصلحته الشخصية، فيوهم نفسه أن فى العمل منفعة عامة،وبذلك يتعرض لخطأ شنيع .

ونحن أميل الى نوع من أنواع اللقانة، وهو أن الانسان خُلِقَ وفى أعماق نفسه قوة تريه بعض الأعمال خيرا وأخرى شرّا، لا بالنظر الى ما ينتج عنها من لذائذ وآلام ولكن لأنها نفسها كذلك، فهو يحس بطبعه بفضيلة و رذيلة، ويشعر أنه مأمور من نفسه بأن يعمل الفضيلة و يتجنب الرذيلة ، وهو مكلف أن يطيع هذا الأمر مهما كانت نتائجه ، وأن يضحى لذلك بكل اللذائذ التى يتوقعها ، فهو يرى الصدق فضيلة ، وشعوره أو عقله يريه ذلك كما تريه عينه الأسود أسود والأبيض أبيض، وكما أنا لا نحكم على الأسود بأنه أسود نظرا لنتائجه فكذلك لا نحكم على الصدق بأنه

خير لنتائجه، ولكن لأن نفسى تريني أنه فضيلة وأنى ملزم بالعمل على وفقه، وإذا كذبت شُكِّلَت لى محكمة فى باطن نفسى تحكم علىّ بالإساءة، وتوقع علىّ عقوبة التأنيب — تلك طبيعتنا التى خلقنا عليها.

والقانون الأخلاقىّ الذى يرينا الخير والشرّ ويأمرنا وينهانا جزء من طبيعتنا، وهو — وإن اختلف عند الناس حسب بيئتهم وتربيتهم فأساسه موجود فيهم، فى المتوحش والمتمدين، وفى الراق وغير الراق — ففى باطن الانسان شعور بالواجب، وأمر بعمله، وعقوبة على مخالفته، ومكافأة على طاعته، وكل إنسان يشعر بذلك من غير أن ينتظر حساب ما فى العمل من لذائذ وآلام، وأمْعَنُ الناس فى الإجرام وأشدّهم قسوة يضطرب اذا أجرم، لا خوفا من العقاب فقط ولكن لأنه خالف أيضا قانون الأخلاق، وكل انسان مسئول أمام ضميره عن إطاعة هذا القانون الأخلاق، ومسئول كذلك أمام الله، فقد ربط الله الثواب والعقاب بهذا القانون، وجعل الجنة جزاء العدل والصدق والشجاعة ونحوها من الفضائل، كما جعل النار عقابا لأضدادها من ظلم وكذب وجبن، وأن هذا القانون الأخلاق الذى فى نفوس الناس هو الرابطة بينهم جميعا، على أساسه يُمدَحون ويذمون، ويكافئون ويعاقبون.

فنحن ندرك الخير والشر بطبعنا ، ونحس الواجب ، ويكلفنا ضميرنا أن نعمله من غير نظر إلى اللذائذ والآلام ، بل يأمرنا أحيانا أن نضحى باللذائذ والسعادة للخير والواجب .

هذا المذهب هو الذى يليق بشرف الإنسان ومنزلته فى العالم ، فليس هو بهيمة يبحث عن لذته أو لذة غيره ، إنما هو مخلوق راق يبحث عن الفضيلة حيث كانت ، ويأمره ضميره بالعمل بها ، وليس يعوقه عن الوصول إلى الدرجة الرفيعة الخلقية إلا تغاليه فى حب ذاته ، وإغضاؤه عن صوت الضمير إرضاء لشهواته ، والمثل الأعلى إنسان يحب الخير للخير ، ويتطلب الفضيلة لأنها فضيلة ، ويؤدى الواجب لأنه واجب ، ويسمع صوت ضميره فى أداء ذلك دائما ، يجعل ذلك مبدأه فى حياته ، وقانونه الذى يسير عليه أبدا .

الفصل الخامس

الخير والشر

ما معنى الخير والشر؟ متى أسمى العمل خيرا ومتى أسمّيه شرًا؟ ما هو الخير الأخير الذى نقصد إليه من أعمالنا؟ وبعبارة أخرى ما غاية الغايات التى ينبغى أن أسعى للوصول إليها؟ — إننا نقصد فى حياتنا الى أشياء كثيرة من مال أو جاه أو صحة أو منصب أو نحو ذلك فلِمَ نقصد إليها؟ وهل هى مقصودة لنفسها أو لشىء وراءها يُعَدّ هو الأساس؟ وإذا كان كذلك فما هو هذا الأساس الذى نسميه الخير الأخير أو غاية الغايات؟ هذا هو موضوع بحثنا فى هذا الفصل.

وإنه لمن السهل استنتاج الأجوبة على هذه الأسئلة مما قرأناه فى الفصل السابق، فإن كل مذهب من المذاهب الثلاثة الماضية يجيب بأجوبة تخالف ما يجيب به الآخر، تبعا لمسلكهم الذى سلكوه فى مقياس الخير والشر.

فالمذهبان الأوّلان « مذهب السعادة الشخصيّة ومذهب السعادة العامّة » قالا : ليس هناك عمل خير فى ذاته ، ولا شرّ فى ذاته ، وإنما العمل يُحكم عليه بأنه خير أو شرّ تبعا لنتائجه ؛ فالعمل الذى ترجُح لذائذه آلامَه خيْر ، والذى ترجح آلامُه لذائذه شرّ ، والذى تتساوى لذائذه وآلامه لا خير ولا شرّ ، فإذا سئلت عن عمل أخير هو أم شرّ حسبت نتائجه لأصدر حكمى عليه ، والعمل فى ذاته ليس خيرا ولا شرًا ، بل العمل الواحد قد يحكم عليه فى بعض الأحيان بأنه خير ، ويحكم عليه فى أحيان أخرى بأنه شرّ ، وذلك لما يحيط به من ظروف تجعله ينتج لذائذ أكثر من الآلام أحيانا ، وآلاما أكثر من اللذائذ أحيانا ، ويجب على الانسان إذا خُيّر بين أعمال أن يختار خيرها ، وخيرُ الأعمال ما أنتج أكبر لذة وأقل ألم .

يتفق المذهبان الأوّلان فى هذا القول وإن اختلفا فى التفصيل ، فالأوّل يرى أنه عند الحكم بالخير والشرّ لا ننظر إلا إلى العامل ، والثانى ينظر الى العالَم أجمع كما سبق تفصيله .

والغاية الأخيرة التى يقصد إليها المذهبان هى « السعادة » فكل عمل قرب منها كان خيرا ، وكل عمل أبعد عنها كان شرًا ،

والمذهب الأول يقصد إلى سعادة العامل ، ويعدّ ذلك هو الغاية الأخيرة للحياة، وهو مذهب ظاهر البطلان كما قدمنا .

أما مذهب السعادة العامّة فيرى أن الغاية الأخيرة التى ينبغى أن يسعى اليها الانسان هى تحقيق السعادة للناس، وأن العمل خير كلما قرّب من إسعاد الناس، وشرّ كلما أبعد من ذلك، وأن الانسان الخيّر هو من راض نفسه على العمل لخير الناس، وربط منفعته الشخصية بمنفعتهم ، وتألم من الأذى يصيبهم كما يتألم من الأذى يصيب نفسه، ويحب لهم من الخير ما يحب لنفسه .

أما مذهب «اللقانة» فيرى أن هناك أشياء هى خير فى ذاتها، وهى التى اصطلحنا على تسميتها فضائل، من صدق وعدل وشجاعة وعفة ونحوها، وهناك أشياء شرّ فى ذاتها وهى التى تسمّى الرذائل من ظلم وكذب وجبن ونحوها، ولسنا نحكم على هذه الأعمال بأنها خير أو شرّ تبعا لنتائجها، ولا فى بعض الأحوال دون بعض، وانما نحكم عليها حكما عاما مطلقا مهما كانت نتائجها، فالصدق والعدل والعفة خير دائما سواء أنتجت لذة أو ألما ، والكذب والظلم والشَّرَهُ شرّ دائما سواء أنتجت لذة أو ألما، والانسان الخيّر مَن وجّه إرادته للعمل حسب ما تهديه نفسه للخير ، والغاية الأخيرة التى ينبغى أن يسعى اليها هى أن يكون فاضلا، يتبع الفضيلة

حيث كانت، ويُلزم نفسـه بالعمل على وفْقها ولو تحمل فى سـبيل ذلك الآلام الجسام — وليست الغاية هى السعادة كما يقول المذهبان السابقان، ولكن الغاية أداء الواجب ، والتمسك بالفضيلة، وإن ضحى لذلك باللذة والسعادة بل وبالحياة إذا دعت الحال ، وليس للسعادة قيمة إذا قيست بالواجب ، واللائق بشرف الانسان أن يسمع لوحى الضـمير من غير أن ينتظر حساب اللذائذ والآلام ، وأن يفعل الواجب للواجب لا لشىء وراءه .

الفصل السادس

علاقة الفـــرد بالمجتمع

نرى الانسان يصيب عضوا من أعضائه مرضٌ فيتألم له سائر الجســد، ولا يقتصر الألم على العضو المريض ، وقد ينتهى ذلك بالموت ، فتُسلَب الأعضاء كلها ما فيها من حياة ، فأعضاء الجسم كلها متضامنة ، يتأثر سائرها بما يصيب أحدها، وقد حكوا أن معدة الإنسان قالت مرّة : إنى أهضم الغذاء كله،وأتعب فى ذلك، ولا يصيبنى منه إلا القليـل ، وقال القلب : إنى أوزّع الدم على سائر الجسد، ولا ينالنى منـه إلا قطرات ، وقالت الرِّجْل : إنى أسعى فى الأرض شرقا وغربا لكسب القوت، مع أنّ حظى من ذلك العناء قليل ، وهكذا ، فأضربت الأعضاء عن العمل ، فبعد مدّة أحست المعدة بألم الجوع ، وأحسّ القلب بالضعف، وأدرك كلّ عضو أن خيره فى أن يعمل له ولغـيره ، فعادت جميعها الى العمـــل .

على العكس من ذلك نرى المجموعة من الحجارة لا رابطة بين أفرادها، ولا يُحِسّ سائر الحجارة ما يقع على حجر منها، فلو أنا أخذنا أحدها وحطمناه لم يتعدّ ذلك الأثرُ غيرَه .

فما كان من الصنف الأول فهو (جسم عضوى) كالإنسان والحيوان والنبات ، وما كان من الصنف الثانى — ككل مجموعة من أحجار وأخشاب ونحوها — سمى (جسما غير عضوى) .

فمن أى الصنفين الجمعية من الناس، كالأسرة والحزب والأمة؟

إنا بقليل من النظر نرى أنها (جسم عضوى) — ولنأخذ مجتمعا صغيرا نحلله تحليلا دقيقا لنبين منه كيف يعتمد المجموع على أجزائه والأجزاء على المجموع ، ونتدرّج فى النظر من المجتمع الصغير الى المجتمع الكبير .

فأصغر المجتمعات الأسرة ، وهى تتكوّن عادة من أب وأم وأولاد وأقرب الناس اليهم ، وفيها يعتمد كل فرد على الباقين ، الكل يخدم الفرد، والفرد يخدم الكل ، فاعتماد الأولاد على الآباء فى مأكلهم وملبسهم ومسكنهم ونظافتهم وغير ذلك واضح جلىّ ، أما الآباء فقد يعتمدون على أولادهم اذا كبروا ومست الحاجة ، ولكن أهمّ من هذا وأكبر قيمة فى نظرهم ما يشعر به الآباء من

السعادة بما يرون من حب أبنائهم لهم، وحنانهم اليهم، وأن كلمة شكر صادرة من قلب أو عملا يدل على الاعتراف بالجميل من الابن لأبيه أو أمه ليُدخل على قلبهما من السرور ما لا يقدر.

وانظر الى علاقة الأولاد أنفسهم بعضهم مع بعض ترأن كل طفل فى الأسرة يؤثر فى الباقين ويتأثر بهم، ولو عاش الإنسان من مبدئه عيشةَ عُزْلة وانفراد لنشأ كالحيوان الأعجم، فكل طفل يتعلم من إخوانه وأخواته المشاركة فى العواطف، فيشاركهم فى فرحهم، ويشعر بالحزن لحزنهم، ويتعلم درس الأخذ والعطاء، فيعرف أنه يجب أن يعطى كما يأخذ، وأن يتنازل عن بعض ما يحب، ويتعلم تبادل المعونة مع الآخرين.

وفى الأسرة يتجلى ما قدّمناه عن مميزات الجسم العضوى من أن الضرر الذى يصيب عضوا يتأثر به سائر الأعضاء، فالولد سيئ الخلق يَحرِم الأسرة كلها سعادتها، والأب السكير أو المقامر يؤثر سلوكه فى معيشة أسرته فيضايقها بما يصرف من مال، وما يتبع سكره أو لعبه من إهمال لشؤون بيته، والأم الجاهلة يؤثر جهلها فى حال الأسرة، فكم من ولد أصابته آفة، أو شوّهت خلقته عاهة أو أدركه الموت من جرّاء جهل أمه، وهكذا.

كذلك الشأن فى الجمعيات التى هى أكبر من الأسرة كالمدرسة، فطلبة المدرسة ومدرّسوها وخرّيجوها جسم عضوىّ، يستطيع كل فرد منهم بعمله الشخصى أن يرفع من شأن المدرسة، أو يحط من قدرها، والصورة التى فى أذهان الناس وقيمتها عندهم نتيجة سيرة طلبتها .

والحزب من الأحزاب يأتى فرد من أفراده عملا مجيدا فيمجّد الحزبَ ويعلى مقامه، وكذا العكس، وقيمة الحزب أو المدرسة حاصل جمع ما يأتى به الأفراد من الأعمال .

والأمة أسرة كبيرة، فهى جسم عضوى تتحد فى اللغة والدّين غالبا، يحكمها قانون واحد، ويشترك أفرادها فى المنافع والمضارّ، كالأمة المصرية، يفيض نيلها باعتدال فينتفع بذلك كل المصريين، وتحسن زراعة القطن فيها سنة وترتفع أثمانه فيكون القطر كله فى رخاء، تاجر يبيع للفلاح ما يحتاجه ومؤجرون يسهل عليهم تحصيل إجارتهم، وحكومة تحصّل الخراج من غير عناء، وتتيسر المعاملات بين الناس، فالملاك بقبضهم أجور أملاكهم يُعمّرون ويبنون، فينتفع البناءون والنجارون ومنهم ينتفع غيرهم وهكذا .

وأوضح المُثُل لاشتراك الأمة فى المنافع والمضارّ المثل الجغرافية، فخزان أسوان — مثلا — بقعة من بقاع القطر المصرى ؛ يؤثر

فى سعادة مصر جميعها ، فيصرف المياه بقدر حسب الحاجة اليها، ولو تهدّم ولم يؤدّ عمله لتضرر القطر المصرى جميعه لا أسوان وحدها.

والمدارس العليا فى القاهرة لم تُنشأ لمنفعة القاهرة فحسْبُ، بل أنشئت لمصلحة مصر كلها، يتعلم فيها أبناؤها من مختلف الأنحاء.

بل تأمل فى كل طائفة من طوائف العمال كعمال السكك الحديدية وعجلات النقل تر أن أعمالهم مرتبطة ارتباطا وثيقا بأعمال غيرهم ، وآعتبر ذلك فى أوقات آعتصابهم، كيف يُعَطّل كثير من الأعمال، و يتأذى كثير من الناس .

وعلى مثال ما قدّمنا يمكن القول بأن الأمة كلها يلحقها ضرر بليغ من وجود عدد كبير من أفرادها يشتغلون فى معامل غير صحية، و يسكنون فى أزقة قذرة، لا يصل اليها هواء نقىّ، ولا تُطَهّر مساكنَها أشعةُ الشمس، فتضعف صحتهم، وتقصر آجالهم، و يكثر العجز فيهم، فلا يستطيعون أداء أعمالهم حق أداء، و يصبح كثير منهم عالة على الأمة، يأكلون من عمل غيرهم، فهم عضو مريض عاجز فى جسم حىّ ، وكذلك الشأن فى الأمة اذا كثر فيها عدد الجاهلين أو السكيرين ، ومحال أن يكون جسم الأمة صحيحا وفيها يكثر المقامرون أو المدمنون .

وكما أن كل عضو فى الجسم ينفع سائر الأعضاء وينتفع منها، ويضرّ سائر الأعضاء ويتضرر منها، كذلك الحال فى جسم الأمة، فالمتعلمون مثلا ينتفعون من الأمة بمالها وسعيها لتنتفع الأمة منهم بعدُ بعلمهم وعملهم، وهكذا كل طائفة من طوائف العمال، فالمعلمون والنجارون والمزارعون والتجار وغيرهم أعضاء يكوّنون جسم الأمة، وكل فرد عضو فى أمته، يؤثر فيها أثرا صالحا أو سيئا، فالمدرس الصالح يبث فى روح تلاميذه أخلاقا صالحة، ويجعلهم أقرب الى الخير، وغيرهم يقتدى بهم، والقاضى العادل يعدل بين الناس فيأمنون على حقوقهم، ويثق ذو الحق بأنه سيصل الى حقه ويخاف المجرم من عقوبة الإجرام فيبتعد عنه، ويجدّ العامل فى عمله لأنه يعلم أن نتيجة سعيه له، وأنه إن اغتُصِبَ حقه فالقضاء كفيل بردّه اليه، وعلى العكس من ذلك القاضى المرتشى.

ولا يخلو إنسان من أثر فى الأمة وان لم تره عيوننا، كالشعرة لها ظلّ وان لم تدركه أبصارنا، فاذا ضم اليها شعرات كان الظل جليا واضحا، وهذا الأثر يختلف تبعا لاختلاف درجات الناس فى الصلاح والفساد، ومقياسُ رقىّ الأمة وانحطاطها بمجموع عمل أفرادها.

بل قد تجلى للباحثين فى الأيام الأخيرة أن الناس كلهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ودينهم جسم عضوى واحد،

فكل أمة تؤثر فى الأمم الأخرى وتتأثر بها فى صنائعها وعلومها وأخلاقها ، فليست أمة من الأمم غنية بمعادنها وصنائعها وعلومها عما حولها، بل ترى أن الله قد قسم الخيرات على العالم، فأمة غنية بالحبوب ولكنها فى حاجة الى المعادن، وأخرى على العكس منها وهكذا، وكل ينفع و ينتفع .

النَّاسُ للنَّاسِ من بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ
بعضٌ لبعضٍ — وإن لم يَشْعُروا — خَدَم

اعتبر ذلك فى أيام الحرب العظمى ترأن كل أمة — محايدة كانت أو محاربة — قد أصابها الضنك بسبب حاجتها الى أشياء كانت تجلبها من الأمم الأخرى، فأصبح نَيْلها عسيرا .

وقد جرّت هذه الحقيقة — أعنى اعتبار الجنس البشرى جميعه جسما واحدا وكل أمة عضوا من أعضائه — بعض الباحثين الى النظر فى الحروب التى تقع بين الأمم ، وذهبوا الى أنها ليست بسائغة، كما لا يسوغ أن يعمل عضو فى جسم على إضعاف عضو آخر، وتمنوا أن لو زال مَثار الخلاف بين الأمم حتى لا يكون مساغ للحرب، واقترحوا لذلك إنشاء محكمة تحكم بين الأمم، كما تحكم المحاكم بين الأفراد المتنازعين ، وهذه هى المسماة "بعصبة الأمم" وقال هؤلاء : إن الخلاف الطبيعى بين الأمم فى الأخلاق والعادات

لا يحيل إمكان التآلف بينها، كما أن الاختلاف بين أفراد الأسرة بالذكورة والأنوثة والشدّة واللين ، لم يمنع من توحدها واعتبارها جسما واحدا ، ولكنهم مع هذا دعوا الى "الوطنيّة" والمحافظة على "القوميّة" ما دامت الأمم الأخرى تدعو اليها ، لأن انعدام "الوطنيّة" فى أمة مع بقائها فى الأمم الأخرى مُؤْذِنَةٌ بزوال تلك الأمة .

وقد تقدّم الناس فى فهم هذه "الأخوية العامة" فاشتدّت الرابطة بين الأمم، وكثر انتفاع بعضها ببعض، فامتدت السكك الحديدية بين أمة وأخرى، وعبرت البواخر البحار، فارتبطت الأمم برّا وبحرا ، وعقدت محالفات كثيرة بين الأمم المختلفة لمصلحة الناس، كالاتفاق العام على البريد والتلغراف والسكك الحديدية، ومن الأدلة على ذلك ما نراه من ميل كثير من الناس الى توحيد المقاييس والموازين فى العالم جميعه، وعقد مؤتمرات عامة تُمثَّل فيها الأمم المختلفة للبحث فى شؤون شتى علميّة وصحية، الى كثير من أمثال ذلك .

هذا هو شأن المجتمعات والأفراد ، وكل فرد فيها عضو من أعضائها، ولا يخلو إنسان من ارتباطه بمجتمعات كثيرة، فكل إنسان عضو فى أسرة، وفى مدينة، أو قرية، وفى أمة، وفى العالم بأسره.

ومن المجتمع يستمدّ الفرد كل شيء من مأكل وملبس ومسكن وعلم وخلق، ولو جرّد الانسان من كل شيء ناله من المجتمع ما بقى له شيء، فجسمه وعقله وخلقه منحة من منح المجتمع .

وكما أن العضو اذا انفصل من الجسم مات ولم تعد له حياة كاليد تفارق الجسم، والورقة تفارق الشجرة، فكذلك الانسان اذا انفصل من مجتمعه أدركه الفناء، ولم تكن له قيمة، لأن أعمال الانسان وأغراضه وعاداته لا تُقوَّم إلا بالنظر الى المجتمع ، فليس الصدق خيرا ولا الكذب شرّا إلا لانسان يعيش فى مجتمع ، ولولا ذلك لم يكن أحدهما خيرا والآخر شرّا .

الفصل السابع

الحق والواجب — معنى الحق — أساسه — ما للفرد من الحقوق نحو غيره من الأفراد

معنى الحق والواجب — ما للانسان يسمى "حقا"، وما عليه يسمى "واجبا"، فاذا كان لى مائة جنيه على آخر يقال: إن لى حقا أن آخذ منه مائة جنيه، وواجب عليه أن يدفع لى هذا المبلغ.

والحق والواجب متلازمان، فمتى كان لشخص حق كان هناك واجب، بل الواقع أن كل حق يستلزم واجبين: واجبا على الناس أن يحترموا حق ذى الحق ولا يتعرضوا له أثناء فعله، وواجبا على ذى الحق نفسه، وهو أن يستعمل حقه فى خيره وخير الناس، فمثلا اذا كان لى بيت فهو حق لى، وذلك يستلزم واجبين: واجبا على الناس ألّا يتعدّوا على هذا البيت بضرر، وأن يحترموا حق فى ملكيته، وواجبا علىّ وهو أن أستعمل البيت فى خيرى وخير الناس،

فاذا أشعلت فيه نارا أريد إحراقه أو آذيت الناس بايجاره لعمل مقلق للراحة لم أكن أدّيت ما وجب علىّ، وهكذا .

ولكن جهة التنفيذ فى الواجبين ليست واحدة — فالذى ينفذ الواجب الأوّل هو القانون الوضعى — غالبا — فاذا تعدّى أحد على بيتى فغصبه منى كان القانون الوضعىّ هو الذى يحمينى، فأستطيع أن أرفع الأمر الى المحاكم، والقاضى يُلْزِمه بمراعاة حق وينفذ ما يجب عليه، أما الواجب الثانى — وهو الواجب علىّ فى استعمال حق على أحسن وجه — فليس الذى ينفذه هو القانون الوضعى — غالبا — وانما يأمر به القانون الأخلاقى ، ويترك تنفيذه الى ذى الحق نفسه ، والى الرأى العام ، فلو أنى هدمت بيتى وهو عامر، أو أتلفت هندسته، أو تركته مهجورا لا أسكنُه ولا أُسْكِنُه لم يتدخل القانون الوضعىّ فى ذلك ، وانما يتدخل القانون الأخلاقىّ، فيأمرنى أن أعمل الواجب علىّ من استعمال بيتى لخيرى وخير الناس ، ويلومنى اذا لم أتبع ذلك ، وكذلك يلومنى الرأى العام ، فاذا قال القانون الوضعىّ : «لكل مالك أن يتصرّف فى ملكه كيف يشاء» فان الأخلاق تقول : «ليس للمالك أن يتصرّف فى ملكه إلا بما فيه الخير له وللناس» .

أساس الحق والواجب — لِمَ كان لى حقوق وعلىّ واجبات؟ يقولون مثلا: إن لى حقا فى أن أتعلم، وحقا فى أن أكون حرًّا، وأن علىّ واجبا أن أرعى حقوق الناس، وأن أؤدّى ما علىّ من الواجبات، فما الذى رتّب هذه الحقوق وهذه الواجبات؟ وهلا يمكن الناس أن يعيشوا من غير حقوق و واجبات؟ .

أساس الحقوق والواجبات هو المعيشة الاجتماعية، فالاتصال الوثيق بين الفرد ومجتمعه الذى شرحناه فى الفصل السابق هو أساس فكرة الحق والواجب، فلو أن الفرد يعيش وحده ما كان هناك معنى لحق ولا واجب، بل كان له أن يفعل ما يشاء بلا قيد ولا شرط، ولكنه لما كان عضوا فى مجتمع، وكان المجتمع ككل جسم حىّ لا بد من أعمال للمحافظة عليه، واذا لم تُعْمَلْ تعرّض المجتمع للخطر والفناء أو التدهور نشأت من ذلك فكرة الحق والواجب، فالأشياء الضرورية لبقاء المجتمع كالمحافظة على الأرواح والأموال سميناها حقوقا للأفراد فى المرتبة الأولى وأوجبنا على كل فرد أن يحترمها، وأوقعنا العقوبات الشديدة على من ينتهك حرمتها، صونا للمجتمع من الفناء، والأشياء التى هى سبب فى رَفَاهِيَة المجتمع

وكماله كالتعليم جعلناها حقوقا فى المرتبـة الثانية وأوجبناها وجوبا أقل من المسائل الأولى .

ولنذكر الآن بعض تلك الحقوق وما يجب بإزائها .

(١) حق الحيـاة

لكل إنسان الحق أن يحيا، ولكن لمـا كانت معيشة الإنسان معيشة اجتماعية وكانت الحقوق التى له مستفادة من قِبَـل المجتمع كان عدلا أن يضحى الفرد بحياته لحفظ حياة المجتمع اذا اقتضى الحال ذلك، كما اذا هُوجِمَتِ الأمة من أمة أخرى قصد الاستيلاء عليها فتُجنّد من أبنائها من يدافع عنها، وهذه أحوال نادرة، أما فيما عداها فحق الحياة حق مقدّس لا يسمح به لأىّ شىء آخر.

وهذا الحق مع وضوحه قد جهلتـه بعض الأمم فى بداوتها ، فبعض قبائل العرب فى جاهليتها كانت تئد البنات خوفا من العار، وتئد الأولاد خشـية الفقر، وكثير من الأمم كانت تقتـل أسرى الحرب متى ظفرت بهم — وفى بعض الأمم الآخذة بحظ وافر من المدنية لا يزال حق الحياة عندهم معرّضا للخطر أحيانا، كما هو الشأن عند الأمم التى تبيح المبارزة، ولو أن الناس قدروا الحياة حق قدرها وتقدّموا فى فهم حقها لمـا تحارَبوا، وحق الحياة لا يمكن أن يوفَّر

لكل أفـراد الأمة ما لم تتوافر لهم وسائل المحافظة على الحيـاة ، وذلك بسهر الحكومة على المحافظة على الأمن والقبض على المجرمين ونحو ذلك، كما أنه لا يمكن أن يوفر حق الحياة إلا بتوفير وسائل المعيشة، حتى لا تقع الأمة فى مجاعة، أو يكثر فيها العاطلون الذين لا يجدون ما يقيم أَوَدَهم، ويحفظ حياتهم .

وحق الحياة ككل الحقوق يستلزم واجبين : واجبا على ذى الحق وهـو أن يحفظ حيـاته ، ويقضيها فى أحسن الوجوه التى تنفع نفسه والناس، فالمنتحر مضيع لحقه فى الحياة، مخل بالواجب عليه، كذلك واجب على الناس أن يحترموا هذا الحق للفرد فلا يتعدّوا عليه — واذا كان هذا الحق أقدس الحقوق كان من تعدّى عليه بقتل أو نحوه مستوجبا أشدّ العقوبات ، وربما كان من الحق أن نسلبه أيضا حقه فى الحياة .

(٢) حق الحرّية

كلمة الحرّية من الكلمات الغامضـة التى تستعمل فى معان مختلفة، ولذلك نبدأ بتحديدها .

الحرّية المطلقـة هى «أن يريد الانسان ويعمل ما يريد من غير أن يكون لأىّ شىء آخر سلطان على ارادته أو عمـله» وهى

بهـذا المعنى لا تكون إلا لله ، فليس ثمة من لا تتأثر ارادته بأى مؤثر خارجى وعنده من القوة ما ينفذ به ما يريد إلا هو ، واذ كنا إنما نبحث عن حرية الانسان لم يكن هذا المعنى المطلق بصالح

إنمـا يصلح للناس حرية مقيدة ، وقد جاء تعريفها فى "إعلان حقوق الانسان" الصادر فى فرنسا سنة ١٧٨٩ م بأنها "القدرة على عمل كل شىء لايضرّ بالغير" وقريب منه ماقاله "هربرت سبنسر": كل إنسان حرّ أن يفعل ما يريد ، بشرط ألا يتعدّى على ما لغيره من مثل حرّيته " ومعنى قوله : إن الناس كلهم متساوون فى حق الحرّية ، ولكل إنسان الحق أن يعمل ما يريد ما لم ينقص ذلك من حرّية الآخرين .

وعرّفها بعض الأخلاقيين "بأن يكون للانسان الحق فى ترقية نفسه بما يشاء من غير أن يتدخل أحد فى شؤونه ، إلا اذا وجدت ضرورة تدعو الى ذلك ، أو كان التدخل لترقية من يتدخل فى شؤونه ، كما فى الحجر على السفيه" وعلى الجملة إن هذا الحق يتطلب أن يعامَل كل فرد معاملة إنسان لا معاملة متاع ، ومن أجل هذا حرم الرق والاستبداد والتسخير ونحوها ممـا يعامل فيـه الانسان كأنه متاع يستخدم لغاية آخر .

ولفهم الحرية فهما صحيحا يجب أن نذكر أنواعها، ثم نبين كل نوع على حدته، فأهمّ ما نستعمل فيه الحرية ما يأتى :

(١) الحرية التى هى ضدّ الاسترقاق، فيقال حرّ ورقيق .

(٢) حرّية الأمم، ويعنون بهـا الاستقلال وعدم الخضوع لحكم الأجنبىّ .

(٣) الحرّية المدنية، وهى أن يكون الشخص آمنا من التعدّى عليه وعلى ملكه ظلمـا، وهذه الحرية تشمل حرية الرأى وحرية الخطابة وحرية التصرّف فى الملك الخ .

(٤) الحرية السياسية وهى أن يكون للانسان الحق فى أن يأخذ نصيبا فى حكومة بلاده بالتصويت فى الانتخابات ونحو ذلك

النوع الأوّل — لايحتاج هذا النوع الى شرح طويل، فالفرق بين الحـرّ والرقيق واضح جلىّ ، وقد كان الاسترقاق فاشـيا فى العصور المـاضية، ولم يكن يُنظر اليه بعين المقت التى ينظر اليه بهـا اليوم ، حتى إن أرِسْطُو — أكبر فلاسـفة اليونان — كان يرى أن بعض الناس بفطرته غير قادر على أن يتصرّف فى شؤون نفسه فخير له أن يكون رقيقا يدبر غيرُه أمرَه — وفى العصور

الحديثة ساد القول بأن الحرية حق طبيعي لكل انسان ، وبعبارة أخرى حق منحه الله للانسان منذ ولد .

وانما منح الناس جميعا الحرية لسببين : أولهما أن حب الحرية متأصّــل فى نفس كل انسان ، فمن الظلم أن نسلبه هــذه الرغبة ، وثانيهما أن الانسان لا يســتطيع أن يقرّر شؤونه بنفســه إلا اذا كان حرّا ، أى أنه لا يمكن أن يكون مسـئولا إلا اذا كان حرّا ، أعنى أنه لا يكون إنسانا إلا اذا كان حرّا .

قد ينعُم بعض الناس فى ظل العبودية أكثر مما ينعمون فى ظل الحرية ، وبعض الأرقاء كانوا أسعد حالا من بعض العمال اليوم ، ولكن قل أن يرضى هؤلاء العمال بحريتهم بديلا — قد تكون الحرية مدرسة شاقة متعبة ، ولكنها المدرسة الوحيدة التى يتعلم فيها الانسان أن يكون إنسانًا حقا .

النوع الثـانى حرية الأمم أى استقلالها — والأمة تحب أن تتمتع بحريتها وتحكم نفسها ، كما يحب الفرد أن يكون سيد نفسه ، وتُحس الضعة والمذلة اذا حكمها غيرها .

فان قلت : ما الفائدة التى تعود على الأمة من استقلالها ، قلنا : إن فائدتهـا من ذلك كفائدة من يُفَكّ الحجر عنـه ، فإنا اذا منحنا

المحجور عليه حرية التصرف فقد يخطئ، ولكن هذا هو خير طريق ليعتنى بشـؤونه وليكون مسـئولا، وانه اذا كان حرّ التصرف زاد طموحه لتكميل نفســه، وشعر بأنه إنســان حقا، وكذلك الشأن فى الأمم، اذا منحت استقلالها شعرت بمسئوليتها، وطمحت ببصرها لتكون خيرا ممـا هى، واعتقدت أن نتيجة مجهودها لها لا لغيرها فضاعف ذلك فى جدّها

ووجه آخر، وهو أن الأمة اذا كانت محكومة بأخرى فكثيرا ما يحدث أن تتعارض مصالح الأمتين فيحدث الاحتكاك ويكثر التصادم وفى ذلك ما يعوق الأمة عن التقدم .

وعلى الجملة فلا تُحِس الأمة شخصيتها إلا اذا نالت حريتهـا ، ولا تنهض وتجدّ فى نيـل كمالها إلا اذا كانت تدير شـؤون نفسها بنفسها، وهـذا النوع من الحرية هو الخطوة الأولى فى كثير من الأحيان لتحقيق الأنواع الأخرى كالحرية المدنية والسياسية

النوع الثالث الحرية المدنيّة — لا يتمتـع الفرد بهذا النوع من الحرية إلا اذا كان فى أمة قد بلغت حظا من المدنية ، فالأمم المتبدية — حيث لا يأمن الفرد فيها على نفسه من القتـل أو السرقة أو مصادرة أملاكه — لا تتمتع بالحرية المدنية، فإذا تقدم

الناس فى الحضارة أصبح لكل فرد فى الأمة الحق أن يدافع عن نفسه أمام القضاء، وأمِنَ أن يُسْجَن أو يحبس أو يعاقب أية عقوبة إلا اذا حكم عليه بمقتضى قانون البلاد، ولا يصح أن يُتعدى عليه فى غير هـذه الحالة، ولا أن يكون ضحية لطمع كبير، أو انتقام حاكم كما كان الشأن قبل رقىّ الانسان، وهـذا النوع من الحرية يشـمل :

حرية الرأى — ونعنى بها أن يكون كل إنسان حرّا فى الحكم على الأشياء بمـا يعتقد أنه الحق، فليس الاجتهاد والتفكير والحكم على الاشياء بأنهـا صواب أو خطأ من حق طائفة خاصـة، بل من حق كل فرد أن يقول أو يكتب ما يراه صوابا — فى أدب من القول، بعـد أن يتثبت منه ويقوم عنـده البرهان على صحته — وان خالف العظماء والعلماء، ذلك لأنه لا يعرف أحد من النـاس كل الحق، ونحن اذا منعنا الناس من أن يقولوا ما يعتقدون حُرِمنا ما قد يكون فى قولهم من رأى صائب أو فكرة حقة، ولهذا يجب أن نسـمح لكل فرد أن يكتب أو يقول ما يراه حقا ثم نتطاحن الآراء صحيحها وفاسدها حتى يتغلب الحق ويتجلى للناس .

(النوع الرابع) الحرية السياسية — ونعنى بها أن يكون للانسـان نصيب فى حكم بلاده، فالأمة اذا كان ممثلوها هم

المشرّعين لها والمديرين لشؤونها قيل: إنها تعمل حسب ارادتها، وهذا هو معنى الحرية ، أما ان كان يشرّع لها ويأمرها من لم يمثلها لم تكن تعمل حسب ارادتها بل هى مضطرة مجبرة ، والجبر ينافى الحرّية .

وقد ثبت هذا الحق «حق الحرية» للانسان لأنه لا يستطيع أن يكمل نفسه ويرقى أخلاقه ويصل الى غايته الا اذا كان حرّا .

وقد تأخر الناس فى فهم هذا الحق حتى بعد أن فهموا حق الحياة ، فقد ظل الرق فاشيا بعد أن كف الناس عن قتل أسرى الحرب ووأد البنات، ولم يبطل الرق الا فى القرن الماضى، والآن بعد أن ألغى الرق لم يتمتع العالم بأنواع الحرية الأخرى كما ينبغى، فأمم عِدّة لا تزال تجاهد لنيل استقلالها، وكذلك النوعان الآخران من الحرّية أعنى الحرية المدنية والسياسية فهما، مع اختلاف الأمم فى درجة التمتع بهما لم يبلغا الدرجة القصوى المنشودة لها .

وهذا الحق أيضا يستلزم واجبين : واجبا على الناس والحكومات أن يحترموا حق الفرد فى الحرية، فلا يتدخلوا فى شؤونه إلا للمصلحة العامة وعند الضرورة، فالحكومات لا تقوم بواجبها

إن كانت تحجر على الصحف والكتب أن تطبع حتى يجيزها الرقيب إلا فى أحوال استثنائية كحالة الحرب، والأفراد لا يؤدون واجبهم اذا كانوا لا يسمحون لخطيب أن يخطب إلا اذا كان يرى رأيهم، ويقول بلسانهم، ولا يبيحون لكاتب أن يكتب ولا صحيفة أن تنشر إلا ما يوافق مذهبهم، انما يؤدون واجبهم يوم يكون القول حرا؛ والنقد المؤدب حرا، والحجة وحدها هى وسيلة الاقناع .

يجب أن يستشعر المرء أنه حر، وأن الناس أيضا أحرار، فكما أن له حقا أن يكون حرا عليه واجب أن يحترم حرية الآخرين، يجب أن ينضم الى شعور الشخص بأنه حر وأنه سيد نفسه شعور بأنه ليس يعيش وحده، ولكنه عضو فى جمعية، وأنه مسئول عن حرية هذه الجمعية، ومن مميزات الأمم الراقية نماء هذين الشعورين فى أفرادها وتعادلهما، أعنى الشعور بالحرية والشعور بالمسئولية — والواجب الآخر واجب على ذى الحق نفسه وهو أن يستعمل حريته فى خيره وخير الناس، ومن أساء استعمالها كان خليقا أن يُسلَبَها، قال مِلْتُن: «من يتعشق الحرية يجب أن يكون قبلُ طيباً حكيما» فليست الحرية تشرى أو تمنح، ولكن تكسب بالعمل لنيلها وحسن الاستعداد لها .

(٣) حق الملك

يكاد يكون حق الملك جزءا مكملا لحق الحرية ، فان الانسان لا يستطيع أن يرقى نفسه كما يشاء إلا بملك الوسائل .

وقد دعا الى هذا الملك أن وسائل الحياة لا تكفى لسدّ رغبات كل الناس ، فتزاحموا على طلبها ، ودعاهم حب الذات الى الاستئثار بها فكان المِلْك .

الملك الخاص والملك العام — وإنّا بالملاحظة نرى شكلين للملك ، فتارة يكون ملكا خاصا كملك شخص كتابا أو منزلا أو ثيابا ، وتارة يكون عاما كالسكك الحـديدية والمتاحف ودار الكتب ودار الآثار .

وإنمـا جعلت بعض الأشياء ملكا خاصا وأخرى ملكا عاما لأنا رأينـا أن الملك الخاص أدعى الى عدم التبـذير والى العناية ، وهو فى هـذين يفضل الملك العام ، ورأينا الملك العـام يحمى من الاحتكار ومن استبداد المـالك .

فالملك الخـاص خير عنـد ما تكون ملكيته أدعى الى العناية والتـدبير ، والملك العام خير عنـد ما تكون ملكيته أنفى للاحتكار

واستبداد فرد أو أفراد قليلين بهـا ، فالثياب التى يلبسها الانسان وما يأكله والمسكن الذى يسكنه خير أن تكون ملكا خاصا له ، لأنه بها أكثر عناية ، ولا خوف فيها من احتكار واستبداد ، أما المتحف أو الشارع فلو كان فى ملك فرد لاستبدّ بالناس وفرض عليهـم من الرسوم ما يضرّ بهم فكان من الخير أن يكون ملكا عاما .

وهناك أشياء كان من الواضح فيها أن تكون ملكا عاما لانطباقها على القاعدة المتقدّمة فى الملك العام ولكن أعطيت للشركات تديرها كشركة الميـاه وشركة النور ، ومنعا لاستبدادها بالأمة عقـدت الحكومة معها شروطا تجعل حدّا أقصى لثمن الوحدات منها .

وليلاحظ أن الأشياء التى نقول : إنهـا ملك عام هى التى يعبر عنها بأملاك الحكومة ، ذلك لأن الحكومة نائبة عن الأمة ، فهى تدير هذه الأملاك وتتصرّف فيها نيابةً عن الأمة .

وحق الملك يستلزم واجبين : واجبا على الناس وهو أن يحترموا ملك المالك فلا يتعدّوا عليه بسرقة أو غصب أو نحو ذلك ، وواجبا على المـالك نفسه وهو أن يستعمل مايملك أحسن استعمال .

واذا كان من النـاس من هم أحوج منا الى ما نملكه وكانوا محتاجين اليـه لاستعماله فى حاجة أكثر ضرورة من حاجتنا وجب

علينا أن نبيح لهم استعماله ، فاذا كنا نملك عجلة أو سيارة وكان جار لنا مريضا واحتيج الى العجلة للاسراع فى إحضار الطبيب وجب علينا أن نبيح لهم استعمالها ، لأن استعمالها فى حفظ الحياة يفضـل أىّ استعمال آخر كالتروض ، ولو أن بيتا لغنىّ احتيج اليـه فى أيام الحرب ليكون مستشفى يعالج فيه الجرحى الذين دافعوا عن أوطانهم وجب على المـالك أن يبيح لهم ذلك ، وواجب أن تعطف على البائس الفقير الذى لا يجد ما يسدّ رمقه فتمنحه شيئا ممـا زاد عن حاجتك ، وقد صدق الشاعر إذ يقول :

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ وَحَولَكَ أَكبادٌ تَحِنُّ الى القِدْرِ

وكل إنسان منا عند اصطدام قطارين أو ترامين واجب عليه أن يقدّم ما يستطيع من منديل وعصا ودواء لاسعاف المنكوبين ، لأن هذا خير ما يستعمل فيه المتاع وهكذا .

(٤) حق التَّرَبِّى

لكل إنسان الحق أن يتربى و يتعلم حسب كفاءته واستعداده ، فله الحق أن يتعـلم القراءة والكتابة وأن يرقى ملكاته فى الفنـون والعلوم حسب ما يسمح له استعداده ، وأن يتهذب بأنواع التهذيب المختلفة .

وإنما كان له هذا الحق لأن التربى وسيلة من وسائل الحرية، ومن وسائل الحياة الراقية، فالجهل اذا فشا فى أمة أثر فيها أثرا سيئا فى جميع مرافقها سـواء فى ذلك الشؤون الاقتصـادية والصحية والاجتماعية والسياسية ، فالمتعلم يستطيع أن يتكسب ويدير أمور معيشته وينظم حياته أكثر ممـا يستطيع الجاهل، والأسرة المتعلمة أقدر على مراعاة الأمور الصحية من الأسرة الجـاهلة ، واذا كثر الجهل فى أمة كثر فيها الفقر والتشرّد والإجرام، والمتعلمون أصوب حكما اذا انْتَخَبُـوا من ينوب عنهم، وأصـدق نظرا وأقوم رأيا اذا انْتُخِبُوا، والمرأة المتعلمة أقدر على تربية أبنائها وتنظيم بيتها وإدارة شؤونها وهكذا، والعلم باب للأخلاق القويمة والدين الصحيح، به يشعر الانسان بنفسه، وبه يدرك الحياة العالية، وبه ترقى شخصيته.

وواجب على الحكومات إزاء هذا الحق إعداد الوسائل لكل فرد من افراد الأمة لينال درجة من التربية تؤهله لأن يكون عضوا صالحـا فى الجمعيـة يعرف حقوقه وواجباته ، ويجب ألّا يحول بينها وبين القيام به فقر الأب أو نحو ذلك، وبعبارة أخرى يجب أن يجد كل طفل فقير مكانا يتعلم فيه، وأن يكون التعليم يؤهل الناشئين لأن يفتحوا لهم طريقا فى الحياة حسب كفاءتهم وميولهم، ويبعث فيهم الرغبة فى أن يعيشوا عيشة أخلاقية صالحة، وعليهـا

إعداد المعلمين الصالحين للقيام بهذه المهمة، وواجب على الأغنياء والجمعيات مساعدة الحكومات فى نشر التعليم لنيل هذا الغرض .

وهذا الحق لم تقومه الأمم التقويم الذى يستحقه حتى أعلى الأمم حضارة، وهم يسيرون بجدّ فى سبيل تحقيقه، نعم إن أكثر الأمم المتمدنة خطت خطوات واسعة فى تسهيل التعليم الأوّلى وتعميمه وجعله إجباريا، ولكن لاتزال هذه الأمم مقصرة فى التعليم العالى، ففيها تجد كثيرا من الراغبين فى تتميم علومهم قد سدّت الطرق فى وجوههم، إما للنفقات التى تفرض عليهم، وإما لاشتراط شروط أخرى لم تتوافر فيهم، والمثل الأعلى للأمة أمة يجد فيها كل فرد وسائل رقيه وتعلمه ممهدة موفورة .

الفصل الثامن

معنى الواجب — أقسامه — واجب الإنسان نحو ربه — نحو نفسه — نحو أسرته — نحو وطنه — نحو الانسانية عامة

تستعمل كلمة « الواجب » فيما يقابل « الحق » فما لغيرنا علينا فحق لهم وواجب علينا، وفى هذا المعنى استعملنا الكلمة فى الفصل السابق ، وكثيرا ما نستعملها ولا نلاحظ فيها مقابلتها للحق . فنقول : « قد أدّى الواجب » و « الواجب يقضى بكذا » ولسنا نلاحظ فيها أنها فى مقابلة « حق » وإن كان التحليل الدقيق قد يؤدّى الى ذلك .

وقد عرّفه بعض الأخلاقيين بأنه العمل الأخلاقى الذى يبعث على الإتيان به الضمير .

وقد اختلف علماء الأخلاق فى الطريقة التى يتبعونها فى تقسيم الواجب، فمنهم من قسمه الى :

(١) واجبات شخصية، أعنى واجبات على الشخص لنفسه كالنظافة والعفة .

(٢) واجبات اجتماعية ، أعنى واجبات على الشخص لمجتمعه، كالعدل والاحسان .

(٣) واجبات إلهية ، كالطاعة وأداء العبادات .

وهذا التقسيم غير محدود، فكل واجب يمكن رجوعه الى أيّ قسم من هذه الأقسام الثلاثة تبعا لاختلاف النظر ، فالنظافة مثلا واجب شخصيّ من حيث مايترتب عليها من صحة بدن الإنسان وراحته ، واجتماعيّ اذا لاحظنا أن صحته تؤثر فى حالة المجتمع ، والهيّ إذا نظرنا اليها من جهة أنها تنفيذ لأمر إلهيّ .

وقسم آخرون الواجب الى قسمين :

(١) واجبات محدودة يمكن أن يكلّف بها الأشخاص على السواء من غير تنويع ، ويمكن أن توضع فى قانون الأمة ، مثل لا تقتل ولا تسرق ، ويمكن أن توضع بجانبها عقوبات لمنتهكها ، وهذه يشترك فى طلبها القانون والأخلاق .

(٢) واجبات غير محدودة، وهذه لا يمكن أن توضع فى قانون الأمة، وإذا وضعت سببت ضررا أكبر ، ولا يمكن أن يعيّن المقدار المطلوب منها ، كالاحسان فانه يختلف المقدار الواجب منه باختلاف الزمان والمكان والظروف المحيطة بالشخص .

والقسم الأوّل يشمل الواجبات الأساسية التى يتوقف عليها بقاء المجتمع وبإهمالها لا يصلح حاله، والقسم الثانى يشمل الواجبات التى عليها رقىّ المجتمع ورفاهيته، ومن أجل هذا قيل: إن النوع الثانى أرقى من الأوّل وأعلى منه شأنا، لأن الأوّل ينفذه القانون والثانى ينفذه الضمير، كالعدل والاحسان، فالعدل من القسم الأوّل وعليه يتوقف المجتمع، والإحسان من النوع الثانى وهو لا يكون حتى يكون العدل، فالعدل الدعامة والإحسان مشيد فوقه[1].

والواجبات على الناس مختلفة متنوّعة، فكل حالة من حالات الحياة تقتضى واجبا معينا، والناس فى هذه الدنيا كبحّارة السفينة، وكجنود الجيش، لكلٍّ عمل وعلى كلٍّ واجب، على اختلاف بينهم فيما يجب عليهم، ذلك لأن الناس مختلفون من وجوه عدّة:

(١) بحسب الثروة فمنهم غنىّ وفقير وبين ذلك.

(٢) وبحسب الرُّتَب كخاصة وعامة.

(٣) وبحسب العمل، فمنهم من عمله عقلى كالقاضى والمدرّس، ومنهم من عمله يدوىّ كالنجار والحدّاد الى كثير من أمثال ذلك — وهذا ينتج خلافا فى الواجبات، فما يجب على حاكم

---

(١) لسنا نعنى بالاحسان هنا التصدّق على الفقير ونحوه، انما نعنى الفضل فى أداء الواجب، فمثلا اذا كان عليك دين فأداؤه عدل وأن تؤديه بلطف وأدب إحسان.

غير ما يجب على أحد الرعية ، وما يجب على غنى غير ما يجب على فقير. وعلى كل إنسان كائنا ما كان أن يؤدّى واجبه. ولا يستصغرنّ أحد ما يجب عليه. فكثيرا ماتتوقف كبار الواجبات على صغارها، فمثلا لا يصح أن نعدّ عمل الكناسين فى الشوارع والأزقة واجبا تافها حقيرا، فإن عليه تتوقف حياة كثير من الناس وحسن صحتهم، وليس هذا بالأمر الهيّن، وأنّ كسر قطعة صغيرة فى سفينة قد يؤدّى الى غرقها كما قد يؤدّى الى ذلك فقد سكّانها (دفتها) وضياع مسمار صغير فى ساعة قد يؤدّى الى وقوفها كضياع "الزمبلك" .

أداء الواجب — على كل إنسان أن يؤدّى واجبه ، ذلك لأن الإنسان فى هذه الحياة لا يعيش لنفسه فحسبُ ، بل يعيش له وللناس ، وأداء الواجب يؤدّى الى هذه السعادة ، فالتلميذ الذى يؤدّى واجبه لأسرته ومدرسته يسعد والديه ، والأغنياء بتأديتهم ما عليهم من بناء للمستشفيات وتبرع للجامعات ونحوها يزيدون فى سعادة الأمة ، وعلى العكس من ذلك السارقون والسكيرون ، فإنهم بإهمالهم الواجب عليهم وعدم إطاعتهم قوانين بلادهم يزيدون فى شقاء الناس وتعاستهم — ولا يبقى العالم ويرقى إلا بأداء الواجب ، ولو أن مجتمعا قصر فى أداء كل واجباته أياما لفنى ، فلو أن المدينين لم يؤدّوا ديونهم ، ورفض طلبة المدارس أن يتعلموا ،

ولم يؤدّ أفراد الأسرة واجبهم، ورفض كل ذى عمل أن يؤدّى عمله لحاق بالمجتمع الفناء العاجل — وبقدر قيام الأفراد بواجبهم يقاس رقىّ الأمة .

يجب أن نؤدّى الواجب لأنه واجب، نؤدّيه إطاعة لضميرنا، لا طمعا فى ربح نناله، ولا رغبة فى شهرة نحصلها، إن الذين يفعلون لك الخير لما يرجون منك من الخير تجار يبيعون اليوم ما يقبضون ثمنه غدا — إنما مثلنا الأعلى أن نصل من الرقىّ الى حدّ أن نتلذذ من أداء الواجب ووصول الخير الى الناس كما نتلذذ من وصول الخير الينا، ونردّد مع أبى العلاء قوله :

فَلَا هَطَلَتْ عَلَىَّ ولا بأرْضى سَحَائِبُ لَيسَ تَنتَظِم البِلَادَا

بل مع البارودى قوله :

أدعُو إلى الدَّارِ بِالسُّقيا وَبى ظَمأٌ
أحقُّ بِالرِّىّ لَكِنِّى أَخُو كَرَمِ

وكثيرا ما يكلفنا القيام بالواجب مشقات ينبغى أن نتحملها، ويتطلب منا تضحية يلزمنا تقديمها ، فالقاضى العادل قد يضطرّ الى الحكم على صديقه أو قريبه فيؤلمه ذلك ، وقد يحمله حبّ العدل على إغضاب أفراد أو هيئات مختلفة فيعرّض بذلك نفسه لأنواع شتى من الآلام، والجندىّ يقدّم حياته عند الخطر فداء لأمته ،

ورئيس السفينة إذا عطبت يجب أن يبق فى السفينة حتى ينتقل جميع من فيها الى قوارب النجاة، وإعلان الإنسان رأيه وتمسكه بمبدئه قد يبعده عن منصب ويحرمه من فائدة، وفى جميع ذلك يجب أن نحمل التضحية — مهما آلمت — عن رضا وارتياح، ويجب أن نعدّ مكافأة الضمير فوق كل مكافأة .

ولكن يجب هنا أن ننبه الى أمرين كثيرا ما يخطئ الناس فيهما .

(الأول) أن التضحية ليست مقصودة لذاتها ، ولا يصح أن تكون غرضا يريد الانسان تحصيله ، فهى ليست إلا ألما محضا ينبغى الفرار منه إلا إذا استتبع خيرا، فما يفعله بعض الزهاد — من الامتناع عن الأكل إلا النزر اليسير، وحرمان النفس من التمتع بما أحله الله ، ولبس الخشن من الثياب لا لغرض إلا طلب المثوبة بهذا الشقاء — خطأ لا يرضى عنه عقل ولا دين ، وقد عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من نذر أن يصوم قائما فى الشمس فأمره بإتمام صيامه ونهاه عن القيام فى الشمس ، لأن الله لم يضع تعذيب النفوس سببا للتقرّب اليه، وليست المشقة نفسها سببا فى رضا الله، وإنما رضاه فى عمل صالح قد يستلزم المشقة ، وليس بصحيح قول الناس : "الثواب على قدر المشقة" إذا أخذ على

عمومه، إنما يكون صحيحا إذا كان العمل المقصود عملا خيرا لا يمكن أن ينال إلا بمشقة، فالتضحية ليست خيرا فى نفسها، ولكن إذا كان الواجب لا يمكن أداؤه إلا بالتضحية وجبت التضحية .

(الثانى) ليس لأداء أىّ واجب تقدّم أية تضحية، بل لا بدّ أن يوازن بين الواجب والتضحية، فليس صوابا أن يضحى الإنسان بحياته ليرتاح من ألم أسنانه، ولكن خيرا أن يقلم أشجاره ليزيد ذلك فى ثمارها، فمتى كان الخير الذى نناله من العمل يرجح التضحية وجبت التضحية، كالطبيب يهجر نومه ويتعرّض للتعب والبرد، لإسعاف مريض وإدخال السرور عليه وعلى أسرته، وكالعالم يهجر راحته ولذته لتأليف كتاب يفيد الناس، أو لاستكشاف يزيد فى خيرهم، والجندىّ يضحى بنفسه لتحيا أمته، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ومتى اقتنع الإنسان بخيرية التضحية وجبت عليه، ذلك لأنه عضو من جسم كما بينا، فليس من الحق أن يستأثر باللذائذ ويتمتع بالراحة التامة والناس من حوله الْمُون متعبُون، كما لا يستأثر عضو بكل الغذاء ويترك سائر الأعضاء تتضوّر جوعا .

وسير عظماء الرجال مملوءة بالشواهد على التضحية، ولا تكاد تجد عظيما لم يُضَحِّ كثيرا، إما لنشر مبدأ يخالف فيه الرأى العام

أو لانقاذ أمته من ضرر يلحقها، أو لتخليص عقائد دينية مما دخل عليها من التغيير، أو لتحقيق مسألة علمية كثر فيها البحث والجدال، أو لاستكشاف نافع يزيد فى سعادة الناس ــ وهذه التضحية هى التى تكونهم، وهى سرّ عظمتهم، فإن ما يبذلون فى حياتهم من الجهد لتذليل الصعاب التى تعترضهم، وما يتحملونه من العناء للتغلب عليها ينمى ملكاتهم ويعوّدهم الصبر على المشاق لنيل أغراضهم، أما من يستسلم للنعيم ويخلد الى الراحة فمحال أن يكون عظيما .

ولنذكر الان أهمّ الواجبات .

---

(١) الواجبات على الإنسان لله

فى العالم قوة خفية تحركه، وتدير شؤونه ، هى علة وجوده وبقائه، وهى سر ما نشاهد من نظام دقيق وقوانين لا تتخلف، وظواهر تتابع بانتظام، نجوم قد دق نظام سيرها ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وفصول تتعاقب بدقة تستخرج العجب ، ونباتات وحيوانات جلّت حياتها عن الوصف — هذه القوة هى لله رب العالمين .

لهذه القوة نحن مدينون بكل شىء لنا ، بحياتنا وبصحتنا وبحواسنا وبكل ملاذ الحياة وصنوف النعيم .

فواجب علينا حبه وإجلاله وشكره — نحبه لأنه مصدر كل خير لنا، وهو الذى يمدنا من قدرته بكل ما لنا من وجود وقدرة ، ونحبه لأنه الموجود الكامل الذى لا حدّ لكماله ، ونحبه لأن من طبيعتنا أن نحبه، فكل إنسان على الفطرة يشعر بحنين الى إله يفزع اليه عند الشدائد، ويتضرّع اليه فى كشف السوء عنه، ويجد فى الالتجاء اليه سلوة وأسّى عند المصائب، ومشجعا على العمل وباعثا على التضحية اذا دعا الواجب .

ومن آثار حبه التعبد بأشكال العبادات المختلفة ، فإنها خير ما تكون اذا دعت اليها حرارة الحب وكانت مظهرا من مظاهر الإخلاص لله والطاعة له ، وإلا كانت مجرّد حركات وصور وأشكال لا روح لها .

وإن من أحسن أنواع الشكر لله الخضوع لقوانين الأخلاق والعمل بما تقتضيه ، ذلك لأن الله خلق هذا العالم وجعل سعادته مرتبطة بأشياء من صدق وعدل وأمانة ونحوها ، وشقاءه وفناءه فى أضدادها ، ثم أمر بما يوصل الى السعادة وسماه خيرا ، ونهى عما يجلب الشقاء وسماه شرّا ، وتلك الأمور التى توصل الى السعادة هى بعينها قوانين الأخلاق ، فمخالفها عاص لأمر الله جاحد لنعمه ، ومطيعها مطيع لأمره مؤدّ لواجبه .

اذا امتلأت النفس عقيدة بما قدّمنا — من أن قوانين الأخلاق هى أوامر الله — صدرت الأعمال عنها ممزوجة بقوّة تجعلها أقوى أثرا وأكثر نفعا ، ولذا ترى أن أكثر من اندفعوا لنصرة الحق وتشدّدوا فى التمسك به أو قدّموا أنفسهم فداء للفضيلة كانوا ممتلئين عقيدة بالله ووجوب طاعته ، ألهبتهم حماسة رغبة فى رضاه وشوق الى لقائه .

واجب الانسان نحو نفسه

يجب على الإنسان نحو نفسه أن يكمل ذاته جسميا وعقليا وخلقيا، فهو مكلف أن يرعى هذه الأمور الثلاثة (جسمه وعقله وخلقه) وأن يبلغ بها ما يستطيع من كمال، ولنذكر كلمة نوضح بها ما يجب فى كل ناحية من هذه النواحى الثلاث .

الناحية الجسمية — كان الإنسان أول أمره يعيش عيشة ساذجة، يخرج الى الجبال أو يتجوّل فى الغابات يجمع ما يقتاته فى يومه، ولم يكن إذ ذاك مكلفا بهذه الفروض الكثيرة التى قيدته بها المدنيّة، فلا زراعة ولا تجارة ولا تخصص فى عمل، فلما آرتقى وعاش عيشة المدنيّة سببت له ضعفا فى صحته ، لأنه حُرِم الإقامة طويلا فى الهواء الطلق، وعوّض عنها عيشته فى منازل لا تستوفى شرائطها الصحية، وبالغ فى أسباب الترف والرفاهية، وآعتاد كثيرا من العبث كالتدخين ونحوه ، وأجهد نفسه فى العمل رغبة فى جمع المال ليسدّ به المطالب الكثيرة للمدنية، كل هذا ونحوه أثر فى صحة المتحضّر فكان أضعف جسما وأقل احتمالا للجهد — اعتبر ذلك فى الحيوانات، فإن الطيور وأنواع الحيوان التى

تغلّب عليها الانسان لحبسها فى قفص أو فى منزل وآستخدمها فى شؤونه أسرع إليها الذبول وكانت عُرضة لكثير من الأمراض .

إن جسم الإنسان آلة كسائر الآلات يجب لبقائها وقدرتها على أداء العمل أن تغذى الغذاء الصالح لها وأن يُعنى بها ، يجب للجسم الهواء النقىّ والغذاء الصالح والرياضة والاعتدال فى العمل .

وإن سوء الصحة أكبر تلف يصيب الإنسان ، فهو يضعف قدرته على العمل ، ويختصر حياته ، ويفسد شعوره — وفى كثير من الأحيان يكون ضعف البدن سببا فى سوء الخلق وملل العقل وعدم قدرته على الإنتاج .

إن صحة البدن هى أساس كل ماله قيمة فى الحياة من مال وحياة ومتاع ، ومما يستوجب الأسف أن هذه الصحة لا تقدّر تقديرا صحيحا إلا بعد ضياعها أو تعرّضها للخطر ، وأن كثيرا من الناس لا يراعون قوانين الصحة إلا اذا أُلجئوا الى ذلك بسبب ضعفهم ، وكان أسهل أن يقوا أنفسهم من الضعف قبل حصوله .

لا يستطيع الإنسان أن يكون انسانا كاملا ناجحا فى الحياة نجاحا حقا اذا كان مريضا أو ضعيف الجسم ، وأقدر الناس على الإنتاج أطولهم عمرا فى صحة ، نعم إن كثيرا من عظماء الرجال كانوا مرضى ،

ولكنهم من غير شك كانوا يكونون أكثر إنتاجا وأصح نظرا وأعظم خيرا لأمتهم وللعالم لو كانوا أحسن صحة، ونجاح هؤلاء مع مرضهم دليل على أن قوتهم العقلية أو الخلقية غير عادية حتى استطاعوا أن يأتوا بما أتوا به على الرغم من مرضهم .

مرض البدن أو ضعفه ذو أثر كبير فى الخلق ، فمن العسير أن يكون إنسان كامل الخلق وهو ممعود أو مكبود أو ضعيف الأعصاب ، إنك تراه غالبا ضيق الخلق غضوبا يائسا متبرّما بالحياة، وكثيرا ما يسائل نفسه : هل هذه الدنيا تساوى شيئا ، وينشد مع أبى العلاء قوله :

تَعَبٌ كُلُّهَا ٱلْحَيَا
ةُ فَمَا أَعْجَبُ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِى ٱزْدِيَادِ

فخير إجابة لهذا أن يقال له : أصلح معدتك أو كبدك أو أعصابك تر أن فى الدنيا ما يسرّ، وأن فيها ما يحبب الحياة .

إن تضخما قليلا فى بعض غدد المخ يجعل من الصعب على الإنسان أن يعبر عن فكره ، وصدمة لموضع من مواضع المخ تجعل الإنسان معتوها، واختمارا فى المعدة يحوّل كل جميل سار فى الحياة الى قبيح مؤلم، وأخذ ملعقة من دواء يزيل هذا الاختمار يحوّل العالم فى نظره الى ما كان عليه من بهجة وسرور .

كان "كَارْلَيْل" ممعودا، فقال صـديق له مساء يوم مشيرا الى السماء — : ما أجمل هذا المنظر! إنه يبعث الحكمة الى نفس الإنسان، فأجابه "كارليل": إنه لايبعث عندى إلا الأسف والحزن وقال مرة: «إن تسعة أعشار بؤسى وأكثر من تسعة أعشار أخطائى يرجع الى اضطراب معدتى» ومثل ذلك كثير، مما يدل على ما لحالة البدن من تأثير كبير فى العقل والخلق .

إزاء هـذا كان واجبا على الانسان السعى فى أن يكون صحيحا وقويا، وذلك بأن يتخير من العادات فى أكله وشربه وتنفسه واستحمامه وعمـله ما يؤثر أثرا حسنا فى صحته، وألا يُفْرِط فى غذاء عقله على حساب جسمه .

يقول بعضهم : "مَنْ مَرِضَ فَقَد أَجْرَم" وهذا صحيح فى كثير من الأحيان، لأن كثيرا من الأمراض يمكن اتقاؤه باعتياد النظافة والاعتدال فى المأكل وانتظام المعيشـة ونحوها ، كما أن كثيرا من الأمراض يمكن الوقوع فيها باعتياد أضدادها .

الناحية العقلية — يخرج الإنسان الى هذا العالم جاهلا بكل شىء ثم يتعلم ما اسـتفادته الأجيال قبله بتجاربهم وممارستهم للعالم الذى حولهم، وأمام كل إنسان طائفة كبيرة من الحقائق ينبغى أن يتعلمها .

وأوّل ما ينبغى أن يتعلمه تمرين حواسه حتى يكون ما تدركه صحيحا، فإن المواد الأولى للمعلومات إنما تأتى من طريق الحواس — السمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحوها — فيجب أن يكون إدراكنا الذى ينشأ عنها صحيحا، ولا يكون ذلك إلا بتمرينها وتعويدها أن تكسبنا المعلومات الحقة من نفسها لا من طريق التلقين — يجب أن يمرّن الانسان حواسه حتى يعرف بالتقريب طول الحجرة اذا نظر اليها، ووزن الشىء اذا وضعه فى يده، وكم ميلا مشى، وما منزلة الصوت فى القوّة والضعف، وأن يكون دقيق الملاحظة فيعتاد اذا نظر الى شىء ثم غاب عنه أن يعرف أوصافه حتى يستطيع أن يحدّثك عنه فى جلاء ووضوح — كل هذه الأمور تفيد عقله فائدة كبيرة، لأن كثيرا من الأخطاء العقلية ناشئ من الخطأ فى المعلومات الحسية، وهذه ناشئة من إهمال الحواس وعدم تمرينها فى مبدأ الحياة .

إن كسب الانسان معلوماته بنفسه من طريق حواسه أولا ثم من طريق عقله ثانيا خير من معلومات يجمعها من الكتب من غير اختبار شخصىّ .

ولا يمكن النجاح العلمىّ إلا بصفات خلقية لا بدّ من توافرها :

(١) تحمل الصعاب والصبر عليها ، فالوصول الى الحق يحتاج الى

عناء ومكابدة فى جمع الحقائق وامتحانها ، واستخراج النتائج الصحيحة منها ، فمن لم يتسلح بالصبر لا يمكنه أن يكون عالما ، وكما قيل : "إن العلم لا يعطيك بعضه إلا اذا أعطيته كلك" ليس مجرّد الحفظ والاستظهار بل ولا مجرّد الفهم مما يصح أن يسمى علما ، إنما العلم أن تمتحن الحقائق بنفسك وتبحثها لتتبين صحيحها من فاسدها ،

(٢) حب الحقيقة ، فلا نندفع وراء عواطفنا فى اعتقاد شيء أو عدم اعتقاده ما لم يثبت لدينا بالبرهان صحته ، نتوقف فى صدور الحكم اذا كانت البراهين لم تتوافر عليه ، لا نُخْدَع بحسن المظهر أو العبارات المنمقة حتى نصل الى كنه الشيء ونزنه وزنا دقيقا ، نلتزم الصدق فى العلم فلا نصبغ الحقيقة بميلنا الشخصى ولا بشهواتنا وأهوائنا ، ويدعونا حب الحقيقة الى أن نوسع صدرنا للنقد يصدر على آرائنا وأفكارنا ، نشغف بالقراءة فلا يكون كل غرضنا من العلم امتحانا ننجح فيه أو شهادة نحصل عليها ، وإنما نقرأ لأن القراءة غذاء عقولنا ، ولكن بجانب هذا يجب أن نتعلم كيف نقرأ ، قال رسكن : "قد تقرأ كل ما فى دار الكتب الانجليزية ثم تصبح بعد — كما كنت — إنسانا غير متعلم ، ولكن اذا أنت قرأت عشر صفحات بإمعان فى كتاب جيد كنت الى درجة ما إنسانا

متعلما " وقال آخر : "لا تعمل القراءة أكثر من تزويد العقل بالمعرفة ، أما التفكير فهو الذى يجعل ما نقرأ جزءا من أنفسنا ، يجب أن ننعم النظر ونطيل الفكر فيما نقرأ ، وليس يكفى أن نثقل أنفسنا بالمعلومات الكثيرة نكدّسها ، فما لم نمضغه ونهضمه لا يغذينا ولا يكسبنا قوة " .

الناحية الخُلُقِيّة — أهمّ أسباب الوقوع فى الرذائل شيئان (١) الأَثَرَة أو التغالى فى حبّ النفس . (٢) الجهل .

فالأثرة نوع من أنواع الضعف متأصل فى الإنسان ، فكل امرئ يتحزب لنفسه ويفكر فيها أكثر مما يفكر فى غيره ، ويدعوه ذلك فى كثير من الأحيان أن يضحى بمصالح غيره وسعادتهم لمنفعته الشخصية ، ذلك هو ما نسميه الأثرة .

حارب المصلحون هذه الأثرة كثيرا ونجحت تعاليمهم ، ففرقٌ كبير بين أثرة المتوحشين وأثرة المتمدنين ، ولكنها لا تزال باقية ، ولا يزال الطريق طويلا أمام الناس حتى يستطيعوا أن يعاملوا غيرهم كما يعاملون أنفسهم ، ولا تزال هناك عوامل تحيي فى النفوس هذه الأثرة كالحرب وتزاحم الناس على وسائل العيش .

وهذه الأثرة أصل كبير من أصول الشرّ ، فلو بحثت عن أكثر ما يُرتكب من الجرائم لرأيت أن سببها التغالى فى حب النفس ،

وأن المجرم لم يستطع أن يتصوّر أن يضع نفسه موضع من أجرم معه، ولو وضع نفسه وغيره فى مستوٍ واحد ما استباح لنفسه الإجرام .

والسبب الثانى — الجهل — ونعنى به الجهل بأن الناس مثلنا ، يُحسون إحساسنا، ولهم من الحقوق مالنا، وعلينا من الواجبات ما عليهم، فالإنسان يتخيل أن ليس لغيره مثل إحساسه، وأنهم لايتألمون من الشرّ كما نتألم، وأن ليس لهم من الحق فى الحياة والسعادة ماله ، ومن أجل ذلك يتخذهم وسائل لمنفعته الشخصية، وقد حمله على هذا التفكير السيئ السبب الأوّل وهو الأثرة .

اذا زال هـذا الجهل واتسع مجال الفكر وعرف الانسان حقا أن الناس مثله سواء بسواء فى شعورهم وحقوقهم وواجباتهم حقق القواعد الذهبية التى وضعها الأنبياء والمصلحون مثل "عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به" و"أحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك" و"اليد العليا خير من اليد السفلى" وفى ذلك تحقيق المثل الأعلى للأخلاق .

* * *

مراعاتك جسمك حتى يكون صحيحا قويا ، وعقلك حتى يكون صحيحا قويا، وخلقك حتى يكون صحيحا قويا ، هو ما يجب عليك نحو نفسك ، وهذا وحده السبيل لسعادتك وسعادة أمتك بك .

واجب الانسان نحو أسرته

لكل الحيوانات -- تقريبا -- مأوى تأوى اليه ، فللطائر وكره، وللسبع عرينه، وللنحل خلاياه، ويكاد يكون هذا المأوى أعز شيء عندها ، فما أسعد الطائر يرفرف بجناحيه يروح ليلا الى وكره، وما أخوفه اذا اقترب أحد منه فهدّد بيضه أو فرخه، وما أضرى السبع اذا قصد أحد عرينه -- لا شيء يثير الخوف والغضب عند هذه المخلوقات أكثر من أن يُمَسّ بسوءٍ مأواها .

كذلك الإنسان يجب أن يكون بيته أعز بقعة على الأرض عنده -- إن علاقة الانسان ببيته أقوى من علاقة الحيوان بمأواه، ذلك لأن حاجة الحيوان الصغير الى أبويه قليلة اذا قيست بحاجة الطفل ، فصغار الطيور مثلا بعد أسابيع قليلة تقوى وتطير، وتفارق عشّها وتستقل بنفسها، وتبنى لها عشّا خاصا بها، وتضعف علاقتها بآبائها ان كان ثمّ علاقة . أما الطفل فلا بدّ له من سنين طويلة حتى يستطيع أن يستقل بنفسه، واذا استقل فلا تزال العلاقة بينه وبين أسرته قوية متينة، وسبب ذلك أن بناء الانسان أكثر تركبا، ومطالب الحياة لديه أكثر تعقدا، فهو محتاج الى زمن أطول حتى يتسلح للكفاح فى هذا العالم ويؤدّى واجبه .

فى هذا البيت يتعلم الطفل أهم دروس الحياة، ولو خرج الى العالم قبل أن يستكمل تربيته المنزلية لكان متوحشا، فالبيت فى الحقيقة هو أكبر ممدّن له .

فى هذا البيت يتعلم كثيرا من الدروس، فمن حبه لإخوته وأخواته ووالديه يتعلم درس حب الناس وحب الوطن، ومن طاعته لوالديه يتعلم طاعة قوانين البلاد وقوانين الأخلاق .

واذا كان للبيت من المنزلة ما بيّنا كان علينا نحوه واجبات نجملها فيما يأتى :

يجب على كل فرد فى الأسرة أن يعمل على أن يكون بيته أسعد مكان، فخشونة المعاملة وخشونة القول والاساءة وإثارة الشحناء ونحو ذلك كل هذه اذا كانت خارج البيت رذيلة فهى فى البيت أرذل .

ومما يؤسف له أن كثيرا من الناس يتجملون فى أخلاقهم مع أصدقائهم ومن يتعاملون معهم فإذا حلوا فى بيتهم تبدلت أخلاقهم الى قسوة وخشونة وفظاظة وانقلب ذلك الصوت الهادئ المؤدب الى هجر فى القول وسوء فى الأدب — والحق أن أدل شىء على الأخلاق الحقيقية هو خلق البيت لا خلق الشارع، فخلق الشارع

خلق التصنع ، والاختلاف فى المعاملة بين أهل بيته ومن فى الخارج يدل على أن الخلق الجميل ليس شيئا فى نفسه ، وإنما هو كالثوب الجميل يلبسه اذا خرج ويخلعه اذا عاد .

كذلك يجب أن نشعر أن منزل الأسرة للأسرة جميعها ، فليس من الحق أن يستأثر أحد الأبناء بخير ما فيه ، ولا يرعى إلا نفسه ، ولا يهتم إلا بما يعود على شخصه .

أوّل واجب على الأبناء الطاعة للأبوين إلا فى أحوال نادرة يأمر فيها الأبوان بالخطأ الواضح .

يجب أن يشعر كل فرد أنه مسئول — بقدر ما يستطيع — عما يحفظ للبيت سعادته ونظامه ونظافته وحسن العلاقة بين أفراده ، وإن خطأة يخطئها أحد منهم تهدّد سعادة المنزل وتعرّضه للشقاء .

ليست الأمة إلا عدّة أسرات ، وليست المدينة إلا عدّة بيوت ، والسلوك الذى يسلكه الناشئ فى بيته ليس إلا صورة مصغرة لسلوكه بعد فى أمته ، وإذا كان منبع النهر ملوّثا تلوّث النهر ، فصلاح الأمة وصلاح البلاد دائما هو بصلاح الأسرة .

واجب الانسان نحو وطنه

(الوطنيّـــة)

الوطنية حب الإنسان لبلاده، أرض آبائه وأجداده، وإنما نحب وطننا لما بيننا و بينه من الصلات المتينة، فقد تربينا فى جوه وبين قومه ، وصرنا منه بمنزلة الفرع من الشجرة ، كوّن هواؤه وتربته أجسامنا، وصارت قوانينه وعرفه عاداتنا، وأصبحت طريقة أهله فى مأكلهم وملبسهم وكلامهم طريقتنا ، نحنّ اليه اذا نزحنا عنه ، ويهيج أشجاننا اليه ذكرانا له ، ونأنس بقربه ، ونعتز بعزته ، ونهون بهوانه .

على أن حب الوطنية يكاد يكون طبيعيا فى كل إنسان، حتى لنرى بعض الحيوانات تحنّ الى أوطانها كما تحنّ الطيور الى أوكارها، ولقد ينشأ البدوىّ فى بلد جدب، ومكان قفر، وهو مع ذلك يسعد بوطنه ويقنع به ويفضله على كل مصر «وترى الحضرىّ يولد بأرض وباء وموَتان وقلة خِصْب، فاذا وقع ببلاد أريَف من بلاده وجناب أخصب من جنابه، واستفاد غنى حنّ الى وطنه

ومستقرّه» هذا هو السرّ فى أنك ترى البلد تفشو فيه أنواع الحميات، أو يكون مثارا للبراكين من حين الى حين، أو عرضة لطغيان الماء أو عصف الرياح، ثم لا يبرحه أهله، ولا يعدلون به بلدا سواه «قيل لأعرابى: كيف تصنع فى البادية اذا اشتدّ القيظ وانتعل كل شىء ظلّه؟ قال: وهل العيش الا ذاك، يمشى أحدنا ميلا فيرفَضُّ عرقا، ثم ينصب عصاه، ويلقى عليها كساءه، ويجلس فى فيئه يكتال الريح، فكأنه فى إيوان كسرى»[1].

ويكون حب الوطن عند أكثر الناس فى حالة كُمُون الى أن يَدْهَم وطنهم خطر، أوتوجد دواع تنبههم، فتتنبه مشاعرهم، ويظهر حبهم لوطنهم بأجلى مظاهره، ويدعوهم للعمل على خدمته، فيبذلون نفوسهم وأموالهم فى سبيل نصرته، والذود عن مجده وحريته.

مظاهر الوطنية — يستطيع الإنسان أن يخدم وطنه من طرق عدّة:

(١) الدفاع عن البلاد اذا هوجمت أو أريد التعدّى على حرّيتها، وهذه هى وطنية الجنود، وقد ظهر هذا النوع من الوطنية

---

(١) الجاحظ.

بأجلى مظاهره فى الحرب العظمى ، فقد بذلت فيها الدماء من كل فريق من المتحاربين بسخاء حفظا على البلاد من التعدّى عليها أو على حرّيتها .

(٢) وقف الحياة على خدمة الوطن، وهذه وطنية السياسيين والمصلحين ، فالسياسيون يديرون دفّة البلاد نحو ما يرقيها ويعلى شأنها ، ويقودون الرأى العام الى ما فيه مصلحة الوطن ، فان رأوا رأيا لم يرضه عامة الناس عملوا ما يرونه حقا ، ولم يثنهم عن عزمهم تهمة يُتهمون بها ولا نقد يوجه اليهم ، يفضلون عمل الحق ولو أهينوا على عمل خطأ يرضى الجمهور وإن كُرّموا ، عمادهم إخلاصهم ومرشدهم وجدانهم — وأما المصلحون فانهم يرون موضع الداء فيعالجونه ، وكثيرا ما يحدث أن الداء يتأصل فيها حتى تألفه وتظنه السلامة ، فإذا دعاها المصلح الى العمل على الخلاص منه قامت فى وجهه وعارضته وحسبته خارجا عليها ، كما قال الله تعالى : ﴿أَوَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ولكن المصلح يزيده الاضطهاد تمسكا برأيه ودفاعا عنه ، ولا يزال الناس يلتفون حول رأيه شيئا فشيئا حتى يصبح المذهبَ المقرّر والرأى السائد ، ويعجب الناس اذا نظروا الى ماضيهم كيف

كانوا يعتنقون هذا المذهب الفاسد، وكيف لم يدركوا فساده بمجرّد الدعوة اليه .

(٣) أداء الواجب — وهذه وطنية الناس كلهم، فأداء كلٍّ واجبَه اليومىّ فى عمله وفى بيته ومع أولاده وأصحابه ومن يعاملونه وانتخابه خير الناس اذا انْتُخِبَ، ومساعدته المشروعات النافعة بماله وعمله وجاهه — كل هذه وطنية صادقة صحيحة ترفع شأن الوطن وتعلى مكانته .

(٤) تشجيع المصنوعات الوطنية والحاصلات البلدية وتفضيلها على غيرها ما أمكن، كما أن وطنية الصانع والمنتج تقضى عليهما أن يبذلا الجهد لجعل المصنوع والمنتَج فى حالة لا تقلّ عن أمثالها مما يرد من الخارج، وعلى الحكومة مساعدة ما تنتجه البلاد نفسها بما تضع من نظام الضرائب ونحوهما ، وإن الأمة اذا ساعدت المصنوعات والحاصلات البلدية تكون قد ساعدت على حفظ الثروة فى بلادها وجعلتها تنتقل من يدها الى يدها الأخرى .

وبعد، فكل إنسان يستطيع بعمله ولو حقيرا أن يخدم وطنه، وليست خدمة الوطن مقصورة على العظماء، بل إن العظماء لا يكون لهم أثر كبير ما لم تؤيدهم الأمة ، فالقائد الكبير إنما نخره نتيجة عمله

وعمل الجنود الصغار ، بل وعمل من صنع للجنود نعالهم وملابسهم ونحو ذلك ، والسياسىّ العظيم لايصل الى غرضه إلا بمعونة كتّاب يعينونه فى فروع من العمل مختلفة ، وأفراد يبذلون ما يحتاج اليه من المال وهكذا ، الأمة كالساعة ، كل آلة لها عمل ، ولا بد من أداء كل آلة عملها لينتظم سيرها ، وان كان يختلف عمل الآلات أهمية ، وسير هذه الآلات وانتظامها لا تقع عليه العين عادة ، وإنما مظهر هذا الانتظام سير العقارب ، فاذا دلت على الأوقات بالضبط دلنا ذلك على أداء كل آلة وظيفتها و إلا ، كذلك الحوادث العظيمة فى الأمة والنجاح الكبير لها مظهره عظماء الرجال والمصلحون ، ولكن ما كان يتم ذلك فى الحقيقة لولا أعمال آلاف من الناس لم يعرفهم التاريخ ، فهؤلاء الآلاف منزلتهم منزلة آلات الساعة الخفية ، والعظماء بمنزلة عقربى الساعة هما مظهران لأعمال عدّة دقيقة ، غير أن الشأن فى الساعة أنه اذا تعطلت آلة منها وقفت الساعة جميعا أما فى الأمة فإذا تعطل أحد أفرادها عن السير حملت الأمة عبأه وسارت ، فالجندىّ فى الجيش اذا خرّ صريعا سار الجيش وتحمل عبء الجندىّ ، وكان الأولى للجيش ألا يخرّ أحد منه صريعا ، وأن يحمل كل واحد عبأه فقط .

فالفلاح فى زرعه الأرض وعنايتــه بالبقر والغنم ، والنجار فى صناعته ، والتاجر ببيعه وشرائه ، والجندى بمحاربته ، والكناس فى الشوارع يكنس الأقذار ، والأم تربى بنيها وتُعْنَى بالبيت وشؤونه والخادم بخدمتها ، والأطباء بمحاربتهم الأمراض ومعالجتهم المرضى ، ورجال الحريق بإطفائهم النار ، ورجال العلم الذين ينشرون العلم ويحاربون الجهل ، ورجال السياسة الذين ينصرون الحق ويخذلون الباطل بأقوالهم وأعمالهم ، والشعراء والموسيقيون وجميع رجال الفنّ الذين يمدّون الحياة بالسعادة ، ويُشعرون الناس بالجمال ، كل هؤلاء يخدمون وطنهم بعملهم ، وكل هذه الأعمال لا بدّ منها لسير الأمة الى الأمام ، وكل هؤلاء اذا أدّوا أعمالهم باتقان ولم يراعوا فيها مصلحتهم الشخصية فحسبُ بل راعوا فيها خيرهم وخير الناس فهم وطنيون صادقون يفخر الوطن بهم ، ويشرف بعملهم .

واجب الإنسان نحو الانسانيّة عامة

النوع الانسانى مؤلف من أمم وقبائل مختلفة لكل منها ميزات وخصائص، وهى مع كثرتها تكوّن جسما واحدا، كل أمة وكل قبيلة عضو من أعضائه، يستفيد كل عضو من سلامة باقى الأعضاء ويتضرّر بما يصيبها، فالحى فى المدينة اذا كان قذرا غير صحى هدّد جميع أجزاء المدينة بالخطر، وانتشار الوباء فى جزء من مملكة يعرّض المملكة جميعها للضرر، والمخترع يخترع آلة جديدة فيستفيد من اختراعها عدد كثير، والعالِم يستكشف حقيقة علمية فيشترك فى الاستفادة منها سائر العلماء فى أنحاء الأرض، والأمة تجنى جناية كأن تُشْهِر حربا فيتضرّر العالم كله منها ضررا بليغا، وهكذا.

يجب أن يشعر الفرد أنه عضو فى الهيئة الانسانية، يحب الخير للناس جميعا من أى جنس كانوا، وبأية لغة تكلموا، وفى أى صقع سكنوا، ويشعر نفسه بالشفقة والرحمة على البائسين أيّا كانوا، ليس النوع الانسانى إلا أسرة كبيرة تقوم الأمم فيها والقبائل مقام الأفراد فى الأسرة، فيجب أن يكونوا جميعا متعاونين على ترقية نوعهم وتحقيق الخير للانسانية عامة.

إن الانسانية مصابة بمواضع ضعف كثيرة ، فكثير من بقاع الأرض حرمت ضروريات الحياة، يعيش أهلها عيشة بؤس وشقاء، تفتك بهم الأمراض وتكتسحهم الأوبئة ، ويفسد حياتهم الجهل — واجب علينا إزاء هؤلاء أن نرقيهم ما استطعنا وأن نرسل اليهم أشعة النور والعلم ونمدهم بوسائل العيش، كذلك تحدث كل يوم كوارث مزعجة، فاصابة عمال، وحوادث اصطدام، وغرق وحريق، ونكبات زلزال ، وثوران بركان ، ونحو ذلك من مصائب الحياة ، فالإنسانية توجب إعانة هؤلاء المنكوبين بكل الوسائل، كالذى ترى من جمعيات الإسعاف والهلال الأحمر والصليب الأحمر والجمعيات الخيرية، كل هذه تحتاج الى مال ينفق منه على أغراضها ومساعدات تقدّم لها .

كثير من المرضى حُرموا وسائل العلاج، فقر مدقع، وبيوت قذرة ، ومعيشة تعين المرض على الفتك ، فهؤلاء لا بدّ لهم من مستشفيات تنفسح لهم، وأطباء يتولون علاجهم ، وهذه لا بدّ لها من مال ورجال .

آباء مجرمون حكم عليهم بالسجن فحرم أولادهم العائل الذى يعولهم، أو تجار أفلسوا أو قعد بهم المرض عن مواصلة السعى فحرمت أسرهم ما يقيم أودهم، وأفراد نكبوا بعمى أو صمم أو عاهة

جعلتهم من العاطلين لا يجدون ما يأكلون ، كل هؤلاء وهؤلاء لا بدّ أن ترحمهم الانسانية فتزيل كربهم ، وتأخذ بيدهم ، بانشاء المعاهد والمستشفيات وجميع المرافق — يجب أن يتساند القادرون لحمل العبء عمن ضعفوا عن مواصلة السير فى الحياة ، وتخفيف ويلاتهم ، ولذلك وسائل كثيرة كالاشتراك فى الجمعيات التى أشرنا اليها قبل ، والاحسان الى البائسين ونحو ذلك من ضروب الخير .

* * *

قد كانت أخلاق الناس الأوّلين قَبَلِية[1] ، لا يرون الخير إلا ما فيه نفع قبيلتهم ، وليس عليهم حرج فى أن يَسْلُبوا مال غيرهم ، ويستبيحوا دماءهم ، فما يُرتكب نحو قبيلة غير قبيلتهم لا يعدّ جريمة ، وإنما الجريمة أن يتعدّى أحد أفراد القبيلة على مثله ، وليس للفضيلة ولا الرذيلة قيمة ذاتية أو نظر لنتائجها عامة إنما هى فضيلة أو رذيلة تبعا لمن تقع عليهم ، وفى بعض القبائل الى الآن من يعاقب بالموت من يسرق من قبيلته ، ويكافأ ويشجّع من يسرق من غيرها ، وكثير من السائحين والمستكشفين يُقتلون أو يعذّبون اذا وقعوا فى أيدى هذه القبائل ، ولا يشعر القاتلون بحرج من ذلك لأنهم لا يرون قتلهم إثما ، فلما ارتقى الناس قليلا اتسع نظرهم وكانت أحكامهم

(١) نسبة الى القبيلة .

الأخلاقية أقرب الى الصواب، فكانوا ينظرون الى الأمة المكونة من جملة قبائل كأنها جسم واحد، ولكنهم كانوا ينظرون الى الأمم الأخرى نظرة العداء كما كان الشأن عند اليونان قديما ، كان العالم الانسانى عندهم ينقسم الى قسمين : يونانيين ومتوحشين ، يعتقدون فى جبلهم (أوليمبوس) الذى لايبلغ ارتفاعه إلا ٩٧٠٠قدم أنه أعلى جبل على وجه الأرض، وأنه مسكن الآلهة، ويستبيحون الاسترقاق من غيرهم، حتى أن أرسطو كان يقول : " إن الأرقاء حيوانات مستأنسة لها عقل " ولهذا النظر لم يكن اليونان يعدلون فى غيرهم .

ارتقى الناس فيما بعد فكانوا فى حكمهم بالخيرية والشرية والحسن والقبح أوسع نظرا ، تبودلت التجارات بين الأمم ، وحسنت الصلات ، ووجدت القوانين الدولية ، والأخلاق الدولية، ولم ينظر الفرد من أمة الى الفرد من أمة أخرى نظرة العدو لعدوه، وان كانت لا تزال عند الأمم وفى النفوس بقية موروثة من آبائنا المتوحشين ، ومن أفظع هذه الآثار الحروب بين الأمم ، والناس سائرون الى الكمال، وستتغلب حتما فكرة الإنسانية فينظر الإنسان الى الإنسان من أى جنس كان كأنه أخوه ، لا يظلمه ولا يخونه، يعدل معه كما يعدل مع أفراد أسرته، وسيضمحل النظر الشخصى أو الجنسى خضوعا لسنة النشوء والارتقاء ، ويحل محله

النظر العالمى، فينظر كل فرد الى النوع الإنسانى كأنه جسم واحد، يعمــل على ترقيته، وتتعاون الأمم وتتبادل المنافع، وترمى كلها الى غرض واحد هو كمال النوع .

وهذا النظر لا يتنافى مع الوطنية، فكما أن الفرد فى الأسرة يعمل لخيره وخير أسرته كذلك الفرد فى الأسرة الكبيرة — وهى الجنس البشرى — يعمل لخير وطنه وخير الإنسانية .

الفصل التاسع

المثل الأعلى

قبل أن نشرع فى بناء بيت يضع المهندس له رسما، وقبل أن يضع هذا الرسم كانت فى ذهنه صورة كاملة للبيت يستملى منها صورته التى يرسمها. وكذلك الشأن فى واضع الرواية، قبل أن يخرجها الى الوجود كانت مرسومة فى ذهنه، وكل انسان يجب أن تكون عنده صورة كاملة لما يودّ أن تكون عليه حياته المستقبلة، وكثيرا ما يسائل الإنسان نفسه : ماذا أكون؟ ما الذى أطمح أن أكونه فى مستقبل حياتى؟ ما الإنسان الكامل الذى أسعى لأن أتمثله يوما ما؟ فالصورة التى فى ذهننا نودّ تحقيقها ونستملى منها لنجيب على هذه الأسئلة تسمى فى عرف الكتّاب الحديثين « المثل الأعلى » .

وهو يميز الإنسان عن غيره من الحيوان، فإنا نرى الحيوانات تعيش على نمط واحد، ليست فى رقىّ مستمر، فمعيشة القط قديما هى معيشته اليوم، وكان النحل يبنى خلاياه على أشكال سداسية

كما يبنيها الآن ، أما الإنسان فدائم الرقي، هو اليوم غيره فى القرن الماضى بل غيره بالأمس،لأن أمامه «مثلا أعلى» يجدّ فى الوصول اليه، وكلما قرب منه سبقه المثل .

ويجب أن يكون لكل انسان «مثل أعلى» يسعى لتحقيقه ويوجه أعماله للوصول اليه، ذلك لأن الإنسان فى هذه الحياة كقائد السفينة فى البحر المتلاطم الأمواج، لا يمكنه أن يصل الى المرفأ حتى يعرف أين المرفأ ، ويرسم خطة للوصول اليه، وإلا تنكب، وكانت سفينته عرضة للارتطام ، وكذلك يحيط بالإنسان قوى مختلفة : شهوات تجاذبه، وصعوبات تعترضه، ومؤثرات متباينة ، فإن لم يحدد غرضه ويعيّن مثله الأعلى تقسمته هذه القوى واضطربت مسالكه .

وللمثل الأعلى تأثير فى النفوس، فهو دائم الشخوص أمام نظر الإنسان يجذبه نحوه ويدعوه لأن يحققه. وإن أعمال الانسان وطريقته فى الحياة تدل على مثله الأعلى «ما هو» — وكل المؤثرات فى الأخلاق من بيئة ومنزل وتعليم انما تُصلح الإنسان بواسطة إصلاح المثل الأعلى، أما المؤثر الوحيد مباشرة فهو ذلك «المثل» .

اختلاف المثل الأعلى — تختلف المُثُل العليا عند الناس اختلافا يكاد يكون بعدد رءوسهم ، فهذا مثله الأعلى رجل

غنيّ متمتع بكل ملذات الحياة، وذلك مثله إنسان كامل العقل، قد تفوّق فى العلوم وتضلع من المعارف، وآخر مثله وطنيّ يدافع عن حقوق وطنه ويرفع مستوى أمته، كذلك يختلف سذاجة وتركبا فقد يكون مَثَلُ شخصٍ صورةً ساذجةً رسمها مما يسمعه من والديه، وقد يكون مثلُ آخر صورة مركبة قد رسمها بعد أن بحث فى الأخلاق بحثا علميا، وعرف الفضائل ورتبها حسب ماصح عنده من مقياس الخير والشرّ .

والإنسان الواحد يختلف مثله من حين لآخر، والأمة الواحدة تختلف مُثُلها كلما تدرّجت فى معارج الرقىّ، وليست الصعوبة أن يجد الإنسان أو الأمة مثلا أعلى، فالمُثُل كثيرة لاعداد لها، وإنما الصعوبة اختيار أحسنها وأنسبها .

وليس فى وسع الأخلاقىّ ولا الفيلسوف أن يرسم مثلا أعلى دقيقا يوافق كل انسان وكلّ أمة ، فالمثل الذى يتفق مع غرائز إنسان ودرجة عقله من الرقىّ والبيئة التى تحيط به ربما لا يوافق الآخر، لاختلافه فيما ذكرنا، اللهم إلا اذا رسم الأخلاقىّ أوالفيلسوف صورة عامة اقتصر فى رسمها على ما يوافق سواد الناس ، كالخياط يعمل ثوبا واسعا يصح أن يلبسه كثيرون مع تعديل بسيط .

وكل الذى نستطيع أن نقوله : إنه ينبغى أن يكون المثل الأعلى للشخص صورة كاملة تمثل خير إنسان يستطيع الشخص أن يكونه فى كل شأن من شؤون حياته ، ففى عمله مَثَله أن يكون أحسن ما يستطيع : من جدّ وأمانة وإتقان ومهارة، وفى سياسته لنفسه مثله أن يكون ضابطا لنفسه، يعمل بإرشاد عقله ، وفى معاملته للناس مثله أن يعاملهم كما يُحب أن يعامَل، وأن يحب الخير لهم كما يحبه لنفسه .

مم يتكوّن المثل الأعلى — أهمّ عامل فى تكوّن المُثُل المنزل والمدرسة والدّين، فتربية الناشئ المنزلية ، وما يسمعه من أبويه،والنظام الذى يسير عليه بيته وما يراه فى المدرسة، وما يسمعه من مدرسيه، وما يلزمونه بقراءته من الكتب، وما يحبّبونه اليه من عظماء الرجال، والدّين الذى يتدين به ، وما يحويه من نظام، وما يرسمه من شكل الحياة الأخرى ، كل ذلك له أكبر الأثر فى تكوين المثل الأعلى، وكذلك غرائز الانسان الطبيعية لها أثر كبير فى انتخاب الصورة التى تتخذ مثلا ، فالميول الموروثة من شجاعة وهمة أو جبن وخمول تعين على تحديد المثل الأعلى،وهى عامل قوىّ فى تكوينه .

نمو المثل — يكاد يكون لكل إنسان مثـل أعلى ولكن لا يشعر به من أين أتاه، وسبب ذلك أن المثل يتكوّن مع الإنسان فى نشأته وينمو بنموه، فلم يكن شيئا جديدا منفصلا عنه حتى يشعر به، و يعـرف متى أتاه ، ومن أين جاءه، يتكوّن المثـل جرثومة فى أثنـاء التربية المنزليـة ، ويكون لمـا يسمعه من القصص — ولو خرافية — دخل فى تكوينه ، ثم يتوارد عليه التغير كلما وجد مؤثر جديد، من رواية يقرؤها أو حكاية يسمعها أو تمجيد لعمل عظيم ، أو ذم لعمل حقير، و إن فى طبيعة الناشئين فى أوّل حياتهم ميلا الى سماع قصص الأبطال وكبار الأعمال وعجائب الحوادث، وذلك — ولاشك — مما يساعد على تنمية المثـل عندهم، فإذا خرج الشاب الى معترك الحيـاة كان لتجاربه فى عمـله ، وتبادل الأخذ والعطاء مع الناس ما يحدّد غايته فى الحياة وينير أمله و يوضح مثله ،وباتساع نظر الإنسان فى الحياة وكبر عقله يكمل المثل وتتم أجزاؤه .

وكما أن المثل عرضة للكمال والاتساع كما بينا كذلك هو عرضة للنقص والضيق ، فالعمال الذين يقضون حياتهـم فى عمـل يدوى محدود، ثم لا يصادفون بعد قضاء نهارهم ما يفيد عقلهم، أو يوسع نظرهم، يضيق مثلهم، و يتحدد أملهم، وذلك شأن طائفة كبيرة من العمال وكتبة الدواوين الذين لا يؤدّون فى الحياة غير عملهم الآلى،

فلا يرقون مداركهم، ولا يوسعون أنظارهم، وحياتهم ليست إلا يوما واحدا متكررا .

وفى ضيق المثل خطر عظيم، فالمثل هو الذى يبعث فى الإنسان روح العمل، ويزيد فى نشاطه وقوّته، وهو الذى يصحح حكمه على الأشياء، فالإنسان عادة عند الحكم على شىء أو نقده يقيسه بمَثَله، ثم يحكم بالخطأ أو الصواب، وبالخير أو الشرّ، فاذا تحدّد المثل وضاق قلّ نشاطه وساء حكمه، وعلى العكس من ذلك اذا ترقى مثله .

الفصل العاشر

الفضـــيلة

الفضـيلة هى الخُلُق الطيب ، والخلق هو " عادة الإرادة " فإذا اعتادت الإرادة شيئا طيبا سميت هذه الصفة فضيلة ، والإنسان الفاضل هو ذو الخلق الطيب الذى اعتاد أن يختار أن يعمل وفق ما تأمر به الأخلاق ، وبذلك يكون الفرق بين الفضيلة والواجب واضحا ، فالفضيلة صفة نفسية ، والواجب عمـل خارجى ، وعلى هذا يقال : فلان أدّى الواجب ولا يقال : أدّى الفضيلة بل حاز الفضـــيلة .

وقد تطلق الفضيلة على العمل نفسه فيقال : "فضائل الأعمال" وليس يُعْنَى بها كل عمل أخلاقى بل الأعمال العظيمة التى يستحق فاعلها الثناء الجزيل ، فلا نسمى دفع ثمن ما اشترِى فضيلة ، إنمـا يسمى الإتيان بالعمل الكبير مع تحمل المشاق فى سبيله فضـيلة ، ويشهد لهذا المعنى اشتقاق الكلمة نفسها ، فإنها مأخوذة من الفضل وهو الزيادة — وعلى هـذا المعنى تكون "الفضـيلة" أخص من "الواجب" .

اختلاف الفضائل — تختلف قيمة الفضائل فى الأمم اختلافا كبيرا ، فلو أنا وضعنا لأمة قائمة تتضمن الفضائل مرتبة حسب أهميتها لها لوجدناها تخالف ما يجب أن يوضع لأمة أخرى ، ذلك لأن ترتيب الفضائل فى كل أمة يجب أن يتبع مركزها الاجتماعى وظروفها المحيطة بها ، وما يفشو فيها من أمراض أخلاقية ، وما اعتورها من أشكال حكومات ونحو ذلك ، فترتيب الفضائل فى الأمة المحكومة غيره فى الأمة الحاكمة ، وفى الأمة الآخذة بحظّ وافر من المدنية غيره فى الأمة البدوية ، وفى الأمة البحرية غيره فى الأمة ساكنة الصحراء وهكذا ، فالأمة المهدّدة بالحروب ترى الشجاعة أهم فضيلة ، والأمة الآمنة المطمئنة ترى العدل خير فضيلة ، والأمة التى تحيا على الصناعة ترى الأمانة والاستقامة عماد الفضائل ، وهكذا .

ويختلف أيضا مفهوم الفضيلة الواحدة باختلاف العصور ، فما كان يفهم من الشجاعة عند اليونان غير ما يفهم منه فى العصور الحديثة ، قد كادوا لا يفهمون منها إلا الصبر على تحمل الآلام الجسمية ، واليوم نفهم منها ما هو أعمّ من ذلك ، حتى إنها تشمل تعبير الانسان عن رأيه من غير خشية لمن حوله ، والعدل تطوّر مفهومه تطورات عدّة حسب تطوّر الأمم فى حالتها العقلية والاجتماعية ،

والإحسان الى الفرد بالتصدّق عليه قد كان يعدّ من أهم الفضائل فى القرون الوسطى حتى وُضع موضع النقد فى العصور الحديثة ، واعترض عليه بأنه لا يميّز فيه بين المستحق للإحسان وغير المستحق تميزا يوثق به ، وبأنه يشل المحسَن اليهم ، ويقعد بهم عن العمل ويميت ما فى نفوسهم من شرف وإباء ، واستحسن المحدَثون إنشاء جمعيات للإحسان تحسِن اليها الأفراد وهى التى تتولى الإنفاق على المُعْوِزِين بعد أن تدرس حالتهم وتعرف فقرهم ، ولا تكتفى هذه الجمعيات بإعطاء المال الى المحتاجين ، بل توجِد عملا لمن لا عمل له ، وتنقذ أولاد البائسين من آبائهم حتى لا ينشؤا نشأتهم ولا يصابوا بمرضهم ، فتنشئ المدارس الصناعية ، وتعلمهم علما عمليا يكتسبون منه أقواتهم ، وقد اهتم كثير من الأمم الممدّنة بإنشاء هــذه الجمعيات ، وحَرّمت إحسان الفرد للفرد ، وحَضّت على إحسان الفرد للجمعيات .

وهكذا الشأن فى كثير من الفضائل ، قــد هذبها رقىّ العقل وتقدّم المدنية .

كذلك تختلف قيمة الفضائل باختلاف حالة الأفراد وأعمالهم ، ففضيلة الكرم بالنسبة للفقير ليست من الأهمية بالدرجة التى لها بالنسبة للغنىّ ، ولا الفضائل التى فى الدرجة الأولى للمسنّ هى بعينها

الفضائل التى فى الدرجة الأولى للشاب، ولا فضائل المرأة مرتبة ترتيب فضائل الرجل ، ولا فضائل التاجر هى نفسها فضائل العالم وهكذا — ومن الصعب على الأخلاقىّ التعمق فى التفصيلات، وبيان الاختلافات الدقيقة بين الأشخاص التى يترتب عليها اختلاف فى قيمة الفضائل .

وكل الذى نستطيع أن نقوله إن الناس جميعا — مهما اختلفوا — مطالَبون بفضائل عامة من صدق وعدل ونحوهما يجب أن يتصفوا بها، وأنهم على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم يستوون فى شىء واحد، وهو أن كلا منهم مطالَب أن يضع فى الدرجة الأولى من الأخلاق ما يناسب حالته ويتفق مع مركزه الاجتماعىّ وعمله الذى يؤدّيه، وان اختلف تطبيق ذلك .

أقسام الفضيلة — بعض الفضائل يمكن أن تدخل فى فضائل أشمل منها ، كالأمانة، فإنها تدخل فى مفهوم العدل . وكالقناعة فإنها تدخل تحت العفة، وبعض الفضائل يكون مولّدا من فضيلتين أو أكثر، كالصبر فإنه ينتج من العفة والشجاعة ، وكالحذر، من العفة والحكمة، فما أصول الفضائل التى هى أساس لغيرها ؟

[قد ذهب «سقراط»(١) الى أنه « لا فضيلة إلا المعرفة » يرى بذلك أن معـرفة الانسان الخـير والشرّ تكفى وحدها لعمل الخير وتجنب الشرّ، و إقدامُ الانسان على الشرّ ليس له من سبب إلا الجهل بنتائجه، ألا ترى الانسان اذا رأى سبعا ضاريا لايقدم على عرينه، واذا رأى هوّة سحيقة لا يتردّى فيها وهكذا ، فلو علم الإنسان نتائج الشرّ علما جازما صحيحا لم يُقدِم عليه ،فكل الشرور ناشئة من الجهل، ولو علم المرء أين الخير لعمله حتما، وعلل ذلك بأن كل إنسان بطبيعته يقصد الخير لنفسه و يكره لها الشرّ، فمحال أن يفعل ما يضرّها وهو عالم بضرره ، فما يصدر عن إنسان من الخطأ إنما منشؤه الجهل بما يعقب العمل من نتائج أو الشك فيها، وعلاج الشرّ أن يُعـلَّم نتائج الأعمال السيئة التى تصدر عنه علما صحيحا، ولتعويد إنسان الخير وجعله مصدرا للفضيلة يُعلَّم نتائج الأعمال الحسنة .

وهـذا خطأ واضح فكثيرا ما نَعلم الخير ونتجنبه ، ونعـلم الشر ونأتيه، فمعرفة الخير ليست كافية فى الحمل على فعله ، بل لا بدّ أن ينضم اليها ارادة قوية حتى يعمل على وفق ما علم .

(١) سـقراط فيلسـوف يونانى شهير وهو أسـتاذ أفلاطون عاش من (سنة ٤٦٩ ــ ٣٩٩) قبل الميلاد، وهو يعدّ مؤسس علم الأخلاق، لأنه أوّل من حاول أن يبنى معاملات الناس على أساس علمى .

وعلى رأى « سقراط » ليست هناك فى الحقيقة إلا فضيلة واحدة وهى «المعرفة»، وان شئت فسمها «الحكمة»، وليس غيرها من الفضائل كالشجاعة والعفة والعدل إلا مظهرا من مظاهرها وصادرا عنها .

ورأى «أفلاطون»(١) أن فى الانسان قُوًى ثلاثا اذا اعتدلت نشأت عنها الفضائل، وهذه القوى هى : القوّة العاقلة، وهذه اذا اعتدلت نشأ عنها فضيلة الحكمة ، والقوّة الغضبية ، وهى اذا اعتدلت نشأ عنها الشجاعة ، والقوّة الشهوية أو البهيمية وهى اذا اعتدلت نشأ عنها العفة وهذه الفضائل الثلاث باعتدالها جميعا ينشأ عنها العدل، فالعدل تتصف به النفس عند أداء هذه القوى الثلاث وظائفها باعتدال ، وعند ماتكون متساندة بحيث تتعاون كل قوّة مع أخرى . فأصول الفضائل عنده أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل .

---

(١) أفلاطون فيلسوف يونانى عاش من سنة (٤٢٧ — ٣٢٧) قبل الميلاد وهو أستاذ أرسطو ومن أكبر من كتب فى الأخلاق .

أما «أرسطو»[1] فكان يذهب الى أن أساس الفضائل «خضوع الشهوات لحكم العقل» وبعبارة أخرى «تسليم زمام الشهوات للعقل يقودها» وهناك طرفان ينبغى تجنبهما ، الطرف الأول محاولة استئصال الشهوات ، والطرف الثانى إرخاء العنان لها والانهماك فيها ، انما الفضيلة الاعتدال ، فلا يطغى أحدهما على الآخر.

وقد جرّ هذا القول «أرسطو» الى وضع «نظرية الأوساط» أى أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، الافراط والتفريط ، فالشجاعة وسط بين التهوّر والجبن ، والكرم وسط بين الشرف والبخل ، والعفة بين الفجور والخمود الخ . وهناك فضائل لم تضع اللغة أسماء لطرفيها الرذيلين ، ولكن هذا لا ينفى أن الفضيلة فى هذه الحالة أيضا وسط بين رذيلتين .

وقد اعترض على هذه النظرية بأن هناك كثيرا من الفضائل لا يظهر فيها أنها وسط بين رذيلتين كالصدق والعدل ، فليس هناك إلا صدق وكذب ، وظلم وعدل .

---

(١) أرسطو أو أرسطاطاليس أعظم فلاسفة اليونان عاش من سنة (٣٨٤ — ٣٢٢) ق م ويلقب بالمعلم الأول ، لأنه أوّل من جمع علم المنطق ورتبه واخترع فيه ، وقد دعاه فيلبس لتعليم ابنه الاسكندر المقدونى فعلمه ثلاث سنين ، وله كتب كثيرة فى فروع العلم المختلفة .

وبأن بعض الفضائل ليس فى وسط الرذيلتين، فإن الشجاعة ليست على بعدين متساويين من التهوّر والجبن، بل هى أقرب الى التهوّر، وكذلك الكرم أقرب الى الإسراف منه الى البخل] .

واتبع بعض المحدثين طريقة أخرى فى تقسيم الفضائل، فقالوا : إن الفضائل إما فضائل شخصية، كضبط النفس وتهذيبها، وإما فضائل اجتماعية كالعدل، فالفضائل الشخصية هى الفضائل التى تنظم حياة الفرد، وتجعل ملكاته وقواه فى حالة تعادل ورقىّ، وأما الفضائل الاجتماعية فهى الفضائل التى تجعل الإنسان فى وفاق مع من حوله من الناس وترقى شؤونهم، نعم ان النوعين من الفضائل يتوقف كل منهما على الآخر، فإنه اذا انعدمت الفضائل الشخصية لا يمكن تحصيل الخير للمجتمع، ولا سيره فى طريق رقيه، ولا إيصال الحقوق للناس، وإذا انعدمت الفضائل الاجتماعية ساءت أخلاق الفرد، ولم يستطع أن يرقى نفسه ترقية تامة، ولكن يمكن التمييز بين النوعين بسهولة .

طرق غرس الفضائل — للفضائل وسائل مختلفة تعين على غرسها، نذكر هنا أهمها :

(١) فأول ذلك تكوين العادات الصالحة فى الطفل منذ صغره، وذلك عمل الآباء فى بيوتهم، والمدرسين فى المدارس، وخصوصا المدارس الأولى، فهم بإلزامهم الطفل أن يكرر عملا صالحا يصبح عادة له، كتعويده النظافة وقول الصدق والطاعة ونحو ذلك، واذا تأصلت هذه العادات أصبح لها من السلطان عليه ما يقرب من الطبيعة التى خلق عليها الإنسان، ولذلك قالوا: «العادة طبيعة ثانية» وبعد أن ينشأ الناشئ وينمو عقله يصبح تكوين العادات الصالحة موكولا اليه هو، وهو المكلف بها والمسئول عنها، فاذا عُنِى بنا آباؤنا ومربونا فى صغرنا، وعُنينا بأنفسنا فى شبابنا بتكوين العادات الصالحة عنيت هذه العادات بنا فى بقية حياتنا، وجنينا من ورائها ربحا عظيما، فنحن كالمصوّر يعمل صورة من جبس لين لايلبث بعدُ أن يتصلب، فإن اعتنى بالصورة وجمّلها كانت — مدّة بقائها — زينة تسرّ الناظرين، وان لم يعن بها وخرجت مشوّهة جمدت على شكلها وكانت غصة للرائين .

والإنسان يكاد يكون مجموع عادات تمشى على الأرض، فطريقته فى معيشته تعتمد على عاداته، بل هو سعيد أوشقىّ بالعادة، أمين أوخائن بالعادة، شجاع أو جبان بالعادة، فاذا عُنِى بنا فى صغرنا ربحنا كثيرا فى حياتنا .

(٢) ومما يعين على غرس الفضائل «القدوة الصالحة»، لأنها تثير الشعور، وتحيي الضمير، وتكون القدوة بأمور:

(أ) الصداقة، فالإنسان يقترب جدّ القرب من أخلاق من يصادق، وكما قال بعضهم: «خبّرني من تصادق أخبرْك من أنت» وتقليد الصديق لصديقه ظاهر فى نواح مختلفة — فى القول — فنحن نبدأ نتكلم بالألفاظ التى يتكلم بها الصديق، فإن كانت سيئة بذيئة شعرنا فى أول الأمر بكراهيتها والاشمئزاز منها، ثم نتعوّد سماعها بتكررها على آذاننا، ولا نشعر بما كنا نشعر به من اشمئزاز، ثم لا نلبث أن ننطق بها كما ينطق صديقنا، كذلك — فى الفعل — فنحن نعمل أعمال أصدقائنا بحكم ما فينا من ميل الى التقليد، ننسخها كما ننسخ صفحة أمامنا، بل نحن نقلد أصدقاءنا فى كثير من أعمالهم من غير شعورنا، فالكلمات التى نسمعها منهم والأعمال التى تصدر عنهم تُحْفَظُ فى أذهاننا، ثم تبعثنا على العمل على وفقها ولو لم نتعمد ذلك.

والصديق يؤثر فى صديقه خيرا كان أو شرّا، فالصديق السيئ ينضح أفكارا سيئة وأقوالا سيئة وذوقا سيئا يتشرّبها صديقه، والصديق الصالح ينضح أفكارا صالحة وأقوالا نقية وذوقا طاهرا يتأثر بها صديقه.

كل هذا يوجب علينا أن نعنى كلّ العناية بتخير الأصدقاء، وأن نفرّ من الصديق السيئ كما نفرّ من المحموم خشية العدوى، ونعدّه خطرا يتهدّد أخلاقنا، نهرب من مجلسه، ونهرب من سماع قوله، ونهرب من رؤية عمله، لأن الشرّ الذى يصدر منه يعلق بنا.

(ب) كذلك — من القدوة الصالحة التى تعين على الفضيلة سِيَر الأبطال ورجال الأخلاق، فالقراءة فى كتب تراجم العظماء وقصصهم وأعمالهم فى حياتهم يودع فى أذهاننا ذخيرة نقلدها فى أعمالنا، وكما أن كثيرين ممن أجرموا كان سبب إجرامهم قراءة رواية لص أو مشهد سينما أو نحو ذلك، كذلك كثير من العظماء إنما كانوا عظماء برؤيتهم القدوة الصالحة وتتبعهم لسيرة بطل رأوه أقرب الى نفوسهم، فعرفوا تفاصيل حياته، فكانت منبعا لعظمتهم.

الحياة الأخلاقية حياة تأثر وتأثير، فكل إنسان يتأثر بمن حوله ويؤثر فيمن حوله، كالشىء الحارّ والبارد، فإنهما اذا تلامسا اكتسب الحارّ برودة والبارد حرارة، فيجب أن نُعْنَى بهاتين الناحيتين، فمن ناحية التأثر يجب ألا نختلط إلا بمن يفيدنا التأثر بهم، ومن ناحية التأثير يجب أن نكون قدوة صالحة لأصدقائنا والذين يعاملوننا، ونعلم أن عملنا الشرّ ليس مقصورا علينا، بل سيسهل

لآخرين أن يعملوا الشرّ مثلنا ، وأن يكون مثلنا الأعلى أن لو عرضت حياتنا بجميع دخائلها لم يجد الناس فيها إلا خيرا يُحْتَذَى .

(٣) كذلك مما يعين على غرس الفضائل دراسة علم الأخلاق ، فكل علم يمنح دارسه عينا ناقدة فى دائرة الأشياء التى يبحث عنها ، وكذلك الشأن فى علم الأخلاق ، فدارسه أقدر على نقد الأعمال التى تعرض عليه وتقويمها تقويما مستقلا غير خاضع الى إلف الناس وتقاليدهم ، بل هو يستمد آراءه من نظريات العلم وقواعده ومقاييسه ، وهذا يعينه على أن يكون فاضلا .

وكثير من العلوم كالرياضة والطبيعة وتقويم البلدان الغرض منها مقصور على معرفة نظرياتها وقواعدها ، أما علم الأخلاق فله غرض أسمى وهو التأثير فى ارادتنا وهدايتها ، وحملنا على أن نشكل حياتنا ونصبغ أعمالنا حتى نحقق المثل الأعلى للحياة ، ونحصل خيرنا وكمالنا ، ومنفعة الناس وخيرهم ، فهو ينير السبيل أمام الارادة ، ويشجعها على عمل الخير ويثبطها عن فعل الشرّ .

فعلم الأخلاق لا يفيدنا ما لم تكن لنا ارادة تنفذ أوامره وتجتنبنا نواهيه .

عادات صالحة نعتادها من صغرنا . وقدوة حسنة تحيي ضمائرنا ، من أصدقاء منتقين ، وكتب مختارة تشرح سِيَر الأبطال وعمل الصالحين ، ودراسة لعلم الأخلاق تشحذ ذهننا لمعرفة الخير والشر ، وتستحث ارادتنا للعمل على وفقه ، كل هذه أكبر ما يعين على غرس الفضائل فى النفوس .

ولسنا نستطيع عدّ الفضائل جميعها ، والكلام على كل منها تفصيلا ، لذلك نختار بعض الفضائل الهامة ونشرحها .

الصـــدق

هو أن يخبر الانسان بما يعتقد أنه الحق، وليس الاخبار مقصورا على القول ، بل قد يكون بالفعل ، كالإشارة باليـد وهزّ الرأس ونحوهما، وقد يكون بالسكوت من غير قول ولا فعل، فمن ارتكب جريمة ورأى غيره يؤنَّب على ارتكابها ثم سكت فقد كذَب ، ومن الكذب المبالغة فى القول مبالغة تجعل السامع يفهم منه أكثر من الحقيقة، كما إذا بالغ إنسان فى وصف شىء بالعظم أوالكبر أو الصغر حتى أفهم السامع أكثر من حقيقته .

ومن الكذب أن يحذف المتكلم بعض الحقيقة ويذكر بعضها اذا كان ذكر ما حذف يجعل لما ذكر لونا خاصا .

وهناك طريقة واحدة للصدق وهو « أن يقول الانسان الحق كل الحق، لا شىء غير الحق » .

وإنما كان الصدق فضيلة لأنه أهم الأسس التى تبنى عليها المجتمعات، ولولاه ما بقى مجتمع ، ذلك لأنه لا بدّ للمجتمع من أن يتفاهم أفراده بعضهم مع بعض، ومن غير التفاهم لا يمكن أن

يتعاونوا ، وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم الذى لا يمكن أن يعيشوا بدونه ، ومعنى الإفهام أن يوصل الإنسان ما فى نفسه من الحقائق الى الآخرين ، وهذا هو الصدق .

يتجلى لك ذلك فى المجتمعات الصـغيرة كالأسرة والمدرسـة ، فكلاهما لايبقى إلا بالصدق ، فلو كذب الطلبة فى كل مايتكلمون ، وكذب عليهـم مدرّسوهم فى كل ما يعلمونهم ويحدّثونهم ما بقيت المدرسـة ، وكذلك البيت — واذا كان المجتمع لا يمكن أن يبـقى اذا كان كل مايتكلم فيه كذبا كان من الواضح أن يتضرّر بقدر مافيه من الكذب ، فقد يبقى اذا غلَب فيه الصـدق على الكذب ولكنه يكون فاسدا منحطا .

ويدلك على ضرورة الصدق أن أغلب المعلومات التى وصلت الينـا بالسماع أو القراءة مبناها الصدق ، وعليهـا يعتمد الإنسان فى معاملاته وتصرّفاته ، فلو كانت كذبا لكانت الأعمال المبنية عليها خطأ وضلالا ، ولَمَا وصل الينا من العـلم إلا شىء قليـل ، وهو مايمكننا أن نجرّبه بأنفسنا ، وهو لا يغنى فى الحياة .

ومن أجل هذا عدّ الصدق أساسا من أسس الفضائل ، وجعل عنوانا لرقىّ الأمم وانحطاطها .

ومما يشاهد فى شأن الكذب أن الكذبة الواحدة قد تستوجب عدّة كذبات لتغطيها ، ذلك لأن الكاذب يخلق فى الدنيـا بكذبه ما لم يكن ، يخلق خيـالا لا يتفق مع الواقع ، وقد يضطره هـذا الخيال الذى خلقه أن يكذب كثيرا ليوفق بين الواقع والخيال ومحال ذلك .

ولا يزال الانسان يكذب حتى يفقد ثقة الناس به وتصديقهم له حتى فيما هو صادق فيه ، كما روى عن «أرسطو» أنه سئل ماضرر الكذب قال : (ألا يثق الناس بقولك حين تصدق) وكل إنسان فى هـذه الدنيا فى حاجة شديدة الى ثقة الناس به سواء كان تاجرا أو طبيبا أو مدرّسا أو محترفا حرفة ، فمن فقد ثقة الناس به فقد حُرِم خيرا عظيما .

وكما يكذب الانسـان على غيره كصاحبه وأخيـه يكذب على نفسه ، وكثيرا مايكون ذلك ، كمن يحاول أن يقنع نفسـه بأنه بذل ما فى وسعه لأداء مايجب عليـه ، وهو فى الحقيقة لم يفعل ذلك ، وكما يحصل كثيرا من محاولة المرء أن يخلق لنفسه الأعذار عن كسله أو بخله أو قسوته أو جبنه غشا لنفسه وخداعا ، وصرفا لهـا عن الحق ، وقد يغلو المرء فى هـذا الأمر حتى يصـير عادة له ، وحتى لايستطيع أن يفرق بين الحق والباطل والصدق والكذب .

وهناك أنواع من الكذب قد وضعت لها أسماء خاصة كالنفاق ، وهو أن يُظهر الانسان غير ما يبطن، اشتقته العرب من النَّافِقَاء وهو إحدى جِحَرة اليَرْبُوع ، يخفيها ويظهر غيرها ليلجأ اليها عند الحاجة، ومن هذا سمى الرجل الذى يظهر الإيمان ويبطن الكفر منافقا ، فهو كذب عملىّ ، ومن هذا النوع أيضا من يظهر الصداقة ويبطن العِداء ، وكل من يظهر بمظهر ينافى حقيقته منافق مذموم .

وكالملق أو التملق وهو أن تمدح آخر بما لا تعتقده فيه لتدخل على قلبه السرور رجاء أن تنال منه منفعة أو نحو ذلك .

وضد النفاق والملق الصراحة ، وهى أن نفتح قلوبنا لمن نخاطبهم ، وأن نصدق فى التعبير عما تكنه ضمائرنا — والكلمة مأخوذة من قولهم : «لبن صريح» إذا ذهبت رغوته وكان خالصا ، فالصريح من الناس من يخلص من الغش ويظهر لمن يحدثه حقيقة ما فى نفسه .

وقد يخطئ قوم فى فهم الصراحة فيظنون أنها تقتضى أن يقول الإنسان كل حق لكل إنسان . وهذا ليس بصحيح ، فهناك مجال للقول ومجال للسكوت . وليس من الصراحة أن تجرح

إحساس النـاس وتؤلم مشاعرهم من غير حاجة تدعو الى ذلك ، أو أن يحدّث الطبيب الناس بأمراض من يعالجهم من الأسَر اذا كان ذكر ذلك يسيئهم ، كما أنه ليس من الصراحة أن تفخر بأعمالك ، أو تفشى ماتعرفه من أسرار نفسك أو بيتك ، أو جيرانك أو أصدقائك ، ولو كان ما تحدّث به حقا ، وإنما الصراحة ألّا تقول — اذا قلت — إلا الحق ، ولكن لاتقوله إلا لمن له الحق أن يعرفه .

ومن ضروب الكذب الممقوت «خلف الوعد» فمن وعد آخر وعدا وفى نيتـه عند وعده ألا يفى فقـد كذب ، وكذلك من كان فى نيته الوفاء ثم أخلف لا لعـذر أو لعذر يستطيع التغلب عليـه ، فى خلف الوعد إضرار بالموعود كاضاعة وقته أو إيجاد أمل كاذب عنده أو نحو ذلك — والوعد دَيْن ، فكما يجب وفاء الديون يجب وفاء الوعود ، ويجب الاقتصاد فيها حتى لايَعِد الإنسان وعدا إلا وفى .

ولا يحق لإنسان بحال من الأحوال أن يفتح على نفسه باب الكذب ، بل ينبغى أن يلتزم الصدق فى جميع أقواله وأعماله — ولسنا ننكر أن التزام الإنسان الصدق فى كل ما يقول ويفعل يستلزم مشقة كبيرة ، ويحتاج الى عناء ورياضة نفس وصبر وشجاعة ، ذلك لأنه قد يعرض للإنسان فى حياته اليومية مسائل دقيقة يرى فيها قصار

النظر أن الكذب أنفع ، وأنه لا مفرّ منه ، ونحن نورد لك أمثلة من أقواها ونبين حجتهم فى الكذب ثم نبين وجه الخطأ فيها .

(١) ناشئ ابتدأ يتعلم فن الشعر عرض عليك قصيدة له لم تستحسنها . فهل تصدق وتقول : إنها قصيدة سقيمة المعانى ، ظاهر فيها التكلف سخيفة النسج ، وحينئذ تكون قد آلمته وجبّهته ، وقد يكون قولك سببا فى تركه الشعر مع أنه لو شُجع لصار شاعرا مجيدا ، أو خير أن تكذب وتقول : إنها قصيدة جميلة فتدخل على قلبه السرور ، وتشجعه على السير فى طريقه حتى يبلغ غايته .

والجواب أن هنالك مندوحة عن الكذب ، فان المسئول اذا كان لا يجيد الشعر ولا يستطيع الحكم عليه يمكنه أن يقول بحق : " لست من الشعر بالمنزلة التى تخوّل لى الحكم " فإن كان يجيد أو يستطيع أن يميز بين جيده ورديئه فليستحسن من الأبيات ما هو حسن فى نظره ، ولينتقد بلطف وأدب مواضع النقد عنده ، ويرشده الى طريقة التخلص من عيوبه ، فهذا صدق لا يؤلم ، وفيه من الفائدة ما ليس للمدح الصرف الكاذب ، إنما يؤلم النفس احتقار الشىء جملة ، وأن يقال الصـدق بخشونة وفظاظة ، أما النقد المؤدب فأشهى الى نفس طالب الحقيقة من القول الكاذب المزوّق .

(٢) الكذب فى الحروب، فقد ترى أمة محاربة لأخرى أن تكذب عليها للايقاع بهـا ، كأن تقول : إنها ستهاجمها من جهـة لا تريدها، أو تشرع بالفعل فى الهجوم من ناحية وفى عزمها الهجوم من ناحية أخرى، تريد بذلك التعمية عليها ، فهل يصح أن نلزمها الصدق فنضيع عليها النصر مع أن الحرب خُدَعة ؟

والجواب أن الكذب فى الحروب ليس كذبا فى الحقيقة، لأن الأمة باعلانها الحرب على أمة أخرى قـد أعلنتها بألّا تفاهم بينهما، وحيث لا تفاهم لا كذب ، لأن معنى إعلانها الحرب أنها ستفعل معها ما تستطيع من الإيقاع بها ولو بالخديعة ، فمثلها مثل من قال لآخر : "سأقص عليك خبرا كاذبا" ثم قصه عليـه ، فليس هذا بكذب لأنه لم يخبره بغير ما يعتقد ، فان اعتقد السامع صدق الخبر فاللوم عليه .

(٣) وأدق من هذا وأصعب ما يحدث كثيرا، يكون لأمّ ولد مرض بالسل مثلا، وهى التى تمرّضه وتعنى بشؤونه، وكان قد مرض لها ولد من قبل بذلك المرض ومات، استدعت الطبيب ففحصه وعرف مرضـه فسألته : هل هو مصاب بالسّل؟ سألتـه وهى مرتبكة مرتجفة تخشى أن يكون الجواب نعم، أفليس من الحكمة أن

يقول الطبيب : إنها "نزلة شعبية" حتى تسترد قوتها وتعنى بالولد. وهو أشد ما يكون حاجة الى عنايتها. أو يقول الحق فتفقد قواها، وترتبك فى تمريض ابنها ، فيثقل المرض عليه ويسرع ذلك الى موته ؟

والجواب أن الناظر اذا قصر نظره على هذه الحادثة فى وقتها رأى أن الكذب قد يكون واجبا، ولكنه إذا وسّع نظره رأى أن الأم ستعلم أن مرض الولد كان السل لا النزلة الشعبية ، وأن الطبيب قد كذب عليها رحمة بها، وسيعلم الناس ذلك فلا يثقون بقوله مهما أكد لهم عن المرض، ولو علم الناس أن الأطباء جميعا يتبعون هذه الطريقة لفقدوا الثقة بهم ، فهذا الكذب قد أضاع معانى اللغة ، وأزال الثقة بين الناس ، وينبغى للانسان عند الحكم على شيء أن يوسع نظره ليرى مايترتب عليه من الاضرار فى المستقبل القريب والبعيد .

ومع هذا فانا نوجب على الطبيب أن يتخير الألفاظ التى يستعملها لأداء الخبر . وأن يفتح على المريض وأهله باب الأمل بالقدر الذى يعتقد، ولكن لا يحيد عن الصدق .

على أنه اذا كان الصدق قد يُودِى بحياة بعض الأفراد، والكذب ينجيهم، — و إن كنا لم نعثر فى حياتنا اليومية على شىء من هذا — فلِمَ لا نضحى بهـذه الأنفس القليلة فى سبيل الحق ، وفى سبيل المحافظة على "معانى اللغة ، وثقة النـاس بعضهم ببعض، وهى كلها ركن عظيم من أركان العمران؟ إذا كان من الصواب أن نضحى بآلاف النفوس للمحافظة على مملكة أفلا يكون من الحق أن نضحى بنفوس معدودة، ونحتمل أضرارا محدودة، للمحافظة على الحق؟

فلندع هـذا النوع من الجدل ، ولنلزم أنفسنا بقول الحق ، كل الحق، فى كل حال .

الشـــجاعة

الشجاعة هى مواجهة الآلام أو الخطر عند الحاجة فى ثبات، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس ، فالذى يرى النتائج ويخاف من وقوعها ثم يواجهها فى ثبات رجل شجاع ، وما دام الإنسان يعمل فى موقفه خير ما يعمل فهو شجاع ، فالقائد الذى يقف فى خط النار فيرتعش ، ويخاف أن ينزل به الموت ، ثم يضبط نفسه ، ويؤدّى عمله كما ينبغى قائد شجاع ، بل هو شجاع أيضا اذا رأى أن خير عمل يعمله أن يتجنب الخطر ، وأن الواجب يقضى عليه أن ينسحب بجنوده حيث لا خطر ، فإن هو أضاع فى موقفه رشده ، أو ترك موقفا يجب أن يقفه ، أو فرّ بجنوده من خطر كان عليه أن يواجهه ، فهو جبان .

فليست الشجاعة تعتمد على الإقدام والإحجام ، ولا على الخوف وعدمه ، إنما تعتمد على ضبط النفس وعمل ما ينبغى ، فإن ضبط الشخص نفسه ، وعمل ما يجب أن يُعمل فى مثل موقفه رغم خطر أمامه ، ورغم ما يشعر به من خوف ، فهو شجاع ، وإلا فلا .

وليس بالمحمود أن يتجرّد الانسان من كل خوف، فقد يكون الخوف فضيلة وعدمه رذيلة ، فالخوف عند إمضاء عقد سياسيّ مثلا أو إنهاء أمر خطير فضيلة، إذ هو يحمله على الروية حتى يختمر رأيه ، وفضيلةٌ أن يخاف الإنسان من ثلم عرضه وشرفه ، فليس بشجاع من يدخل الحانة ويشرب جهارا ، أو يقامر على ملأ من الناس غير هيّاب ولا وجل، فذلك ضعف فى الشعور لا شجاعة .

إنما الجبن المذموم والخوف المرذول أن يبالغ الإنسان فى الخوف، أو يهوّل فى الشيء المخوف، فمثلا كل إنسان عرضة لكَلْب كَلِب يعضه ، أو سلك ترام يصعقه ، أو سيارة أو قطار يدهمه، أو نار تشب فى بيته، أو مكروه ينال منه، كل هذه الأشياء تخيف ، ولكن الجبان يبالغ فى الخوف منها، ويخشى جدّ الخشية من وقوعها، ثم يحمله خوفه على اجتناب العمل ، فلا يركب مركبا — مثلا — خوف أن يغرق به، ولا يرحل عن وطنه اذا لم يجد عملا خوف أن يدركه الموت ، ولكن الشجاع لا يفكر كثيرا فى احتمال الشر، ثم اذا وقع لم يَطِرْ قلبه شَعَاعًا، بل يصبر له، ويتحمله فى ثبات ، إن مرض لا يضاعف مرضه بوهمه ، واذا نزل به مكروه قابله بجأش رابط نخفف من شدّته .

وعلى الجملة فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذى لايخاف مما ينبغى أن يخاف منه، ولا بالجبان الذى يخاف مما لا يخاف منه .

وليست الشجاعة مقصورة على حمل السلاح ومشاهدة الحروب، بل إن كثيرا من الأعمال اليومية يحتاج الى شجاعة لاتقل عن شجاعة الجنود، فرجال المطافئ، والأطباء، وعمال المناجم، وصيادو الأسماك فى البحار عند آشتداد الرياح وتلاطم الأمواج، والممرضات اللائى يتعرضن للأخطار بتمريض المصابين بالأمراض المعدية، وربانو السفن التجارية، كل هؤلاء وأمثالهم شجعان يتحملون الأخطار كما يتحمل الجنود، ويقابلون الشدائد فى صبر وثبات .

ومن أكبر مظاهر الشجاعة حضور الذهن عند الشدائد، فشجاع من إذا عراه خطب لم يذهب برشده، بل يقابله برزانة وثبات، ويتصرف فيه بذهن حاضر، وعقل غير مشتت، قد يرى إنسان نارا تلتهم بيته، أو لصا يغشى منزله، أو قطارا يكاد يهشم رجلا، أو سفينة أشرفت على الغرق، فإن فقد رشده، وأضاع صوابه، وحار طرفه، ودله عقله، ولم يدر ماذا يفعل، كان جبانا. وإن هو ملك نفسه، وثبت قلبه، وتصرف فى الأمر على أحسن وجه، كان شجاعا حقا . كالذى حكى عن عبد الملك بن مروان

أنه أتاه فى يوم واحد خبر مقتل ابن زياد ؛ وهزيمة جيشه ، ودخول ابن الزبير فلسطين، وثوران ثورة فى دمشق، ومسير ملك الروم الى الشأم، فما تزعزع ولا طاش، وقد رؤى فى هذا اليوم ثابت الجنان، غير مقطب الوجه ، ثم شغل ملك الروم بمال يؤدّيه اليه، ووجّه جيشا الى فلسطين فاستردّها ،وسار الى دمشق فأسكن فتنتها .

الشجاعة الأدبية — لما تقدّم الناس فى المدنية لم يكونوا فى حاجة كبرى الى الشجاعة البدنيـة كما كانوا يحتاجون إليها أيام بداوتهم، فظهر للشجاعة معنى جديد يسمونه الشجاعة الأدبيـة ، يعنون بها أن يبدى الإنسان رأيه وما يعتقـد أنه الحق مهما ظن الناس به، أو تقوّلوا عليه، ومهما جرّ ذلك عليه من غضبٍ عظيم، لا يخاف من تحمل ألم يصيبه فى سبيل قول حق يقوله ، أو مبـدأ هام ينشره ، فلو رأى فى مسألة غير ما يراه علماء وقته أو من حوله من الناس، أو خالف حاكما أو عظيما، جاهر برأيه غاضا عما يناله من الأذى ،يقول الحق بأدب وإن تألم منه الناس، و يعترف بالخطأ وإن نالتـه عقوبة ، و يرفض العمل بما لا يراه صوابا ولو لم يقع رفضه موقعا حسنا .

والتاريخ مملوء بكثير من الناس ضحوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل قول الحق ونصرته، وصبروا على الآلام عشقا للحق وهُيَاما به، واستعذبوا طعم الرزايا تنزل بهم لأنهم يحبون الحق أكثر مما يحبون أنفسهم، ومنهم الأنبياء والمرسلون والشهداء ونوابغ العلماء، فقد أُوذُوا فى الحق فتحملوا الأذى، وباعوا أنفسهم وأموالهم مرضاة له، كالذى حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء إليه عمه أبو طالب ينصحه بالعدول عن دعوة الناس فقال له : « يا عمّ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

ومن هؤلاء «سقراط» الفيلسوف اليونانى، فقد علّم شبان أثينا ما وصل إليه علمه، وبذل جهده فى تثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم، فلما بلغ سنّ السبعين اتهم بأنه يجحد آلهة اليونان، ويضلل الشبان، فحكم عليه بالإعدام، وكان فى استطاعته أن ينجو بنفسه اذا هو تعهد أن ينقطع عن التعليم، ولكنه أصرّ على قول الحق وأضاع نفسه .

وفى تاريخ العرب كثير من أمثال ذلك "فابن رشد" الفيلسوف الشهير المتوفى فى سنة ٥٩٥ هـ اضطُهد من أجل اشتغاله بالفلسفة، وسجن ونفى فلم يعبأ بذلك كله .

" وابن تَيْمِيَة " أحد الفقهاء المشهورين المتوفى سنة ٧٢٨ هـ أدّاه اجتهاده الى مخالفة فقهاء عصره فى بعض المسائل فوشوا به الى السلطان فسجنه ، فظل يكتب الرسائل فى سجنه يؤيد بها مذهبه ، ويدحض بها حجج معارضيه .

وفى العصور الحديثة لولا أن قوما من العلماء ضحوا كثيرا فى قول الحق ما تقدّم العلم والمدنية الى الحدّ الذى نراه "فجاليليو" الفلكى الايطالى (١٥٦٤ — ١٦٤٣ م) اخترع التلسكوب فرأى به أن المجرّة ليست إلا نجوما كثيرة ، وأن فى القمر جبالا وأودية كالتى فى الأرض ، ورأى به كلف الشمس ، وكان يُعلّم أن الأرض تدور حول الشمس مخالفا لتعاليم "بَطْلَيْمُوس" القائلة بأن الأرض هى مركز الكون ، فاضطهده من أجل ذلك بعض القسيسين ، وأمروه بالكف عن تعاليمه ، فلم يستطع الصبر عن الحق ، فأُخذ وسُجن وعُذّب كثيرا من أجل تعاليم يعرفها كل تلاميذ المدارس اليوم .

" ودَارْوِن " الفيلسوف الانجليزى (١٨٠٩ — ١٨٨٢م) لم يُعذّب كما عُذب مَنْ قبله بسجن أو نفى أو قتل ، ولكنه عُذب بالانتقاد المرّ من رجال عصره فتحمله ، وأبان الطريقة التى اتبعها النبات والحيوان فى نشوئه وارتقائه ، ولم يقعد به ضعف صحته عن

البحث وراء الحقيقة ، فكان على الرغم من مرضه وألمه يُجرى التجارب ويجتهد أن يتعلم دائما أشياء جديدة عن الدنيا التى يعيش فيها ، "وكَامْبَانِلا" الفيلسوف الايطالى — (١٥٦٨ — ١٦٣٩م) قد أغضب بعض القسيسين والأمراء بتعاليمه الجديدة ، فقد كان يقول : إننا نستطيع أن نتعلم من امتحان الأشياء التى حولنا كالأشجار والأزهار والجبال والأنهار أكثر مما نتعلمه من كتب الفلاسفة القدماء أمثال "أرسطو" وكان يقول : إن هناك نظاما للحكم خيرا من النظام الحاضر لا يستبدّ فيه الحكام بالشّعب ، وقد سجن من أجل أقواله هذه ، وعذب عذابا شديدا ، واستمرّ فى الحبس خمسا وعشرين سنة ، ثم أفرج عنه .

فواجب أن تقف بازاء الحق نصرح به وندافع عنه ونعشقه ، ونتحمل الآلام فى سبيله ، ونتخذ مَنْ ذكرنا مثلا صالحا فى حياتنا .

ومن هذا النوع من الشجعان من يهجر لذته وراحته ، ويتحمل الآلام ، لخير الناس وإسعادهم ، كمن يرى مرضا اجتماعيا فى أمته فيخصص حياته لدراسته ومعرفة أسبابه ، ثم يتحمل المتاعب فى سبيل إصلاحه ، وكأن يرى الأطفال الذين لم يتجاوزوا العاشرة يعملون فى المعامل ساعات طويلة فى أماكن غير صحية بأجر قليل ، لا يرحمهم

ولا يشفق عليهم أصحاب المعامل ورءوس الأموال، فيشبون ضعفاء جهلاء يقسون على من دونهم كما قُسِي عليهم، أو يرى أولاد الشوارع ينشئون ولا علم ولا عمل فيكونون بعدُ مجرمين يعبثون بالأمن ويعثون فى الأرض فسادا ، أو يرى فقراء يألمون فى الحياة آلاما جسيمة يقضون أطول زمن فى العمل وينالون أقل أجر، تشتد مزاحمتهم على العمل، ويخضعون لنُظُم شاقة، يسكنون مساكن غير صحية وهم مع ذلك يستأجرونها بأجرة باهظة اذا قيست بمساكن الأوساط والأغنياء، أثمان طعامهم ووقودهم وحاجاتهم أغلى مما يدفعه الأغنياء لأنهم مضطرون الى شراء كميات قليلة فى أوقات يقل فيها الصنف ، تكثر بينهم الأمراض والوَفَيَات ، ويشتد بهم الضيق بمجرد قعودهم عن العمل لأنهم لم يستطيعوا أن يوفروا شيئا من أجورهم وقت عملهم، بيوتهم وحاراتهم تشمئز منها النفس قذارة، اضطرهم الفقر الى الازدحام فى الحجرة الواحدة مع ما يفشو فيهم من الأمراض ، تنشأ بينهم أبناؤهم وبناتهم فيجدون حولهم جوّا خانقا من سكر وعربدة وتسوّل ومسكنة وكذب جرّ اليها الفقر وسوء الحال، فيخضعون لذلك مضطرين، ويسيرون سير آبائهم وهم فى ذلك مجبرون لا مخيرون ، فمن رأى شيئا من ذلك أو نحوه من الأمراض نخصص حياته لمعالجته، وضحى بكثير من مصلحته

لمصلحة أمته، وصبر على ما يناله من الشدائد، وتغلب على ما يصادفه من العقبات، كان أشجع من جندي في خط النار .

علاج الجبن — الشجاعة والجبن ونحوهما من الفضائل والرذائل تعتمد على الوراثة والتربية معا، فنحن نرث من آبائنا بذور شجاعتهم أو جبنهم ، ولكن يجب ألا ننسى أن للتربية أثرا كبيرا، فهى اذا كانت صالحة زادت الشجاع شجاعة ، وقللت من جبن الجبان، واذا عولج الجبان علاجا ناجعا فقد يبرأ من مرضه، وليس للجبن علاج واحد، بل ينبغي أن يُنظر الى سببه، ثم يتخذ له العلاج اللائق به ، شأنَ جميع الأدواء ، فقد يكون سببه الجهل بالشيء، فالعلاج اذًا العلم به ، كالذى يرى شبحا فى الظلام فيتزعج منه وترتعد فرائصه ، فاذا علم أنه حجر أو متاع أَنِسَ به وزال خوفه، ومن هذا النوع أكثر ما يخيف فى الظلام من عفاريت ونحوها .

ويتصل بهذا عدم الإلف، فكثيرا ما يكون سببَ الجبن، فالإنسان اذا لم يأنس بالشيء ويألفه يجبن أمامه ، كالطالب الذى لم يتعوّد الخطابة فاذا هو حاولها تهدّج صوته ، وجف ريقه ، وارتعشت أطرافه، ومن لم يتعوّد غِشيان المجالس ومخالطة الناس

يخاف منهم ويلجئه الجبن الى حب العزلة، فإن هو اضطر يوما الى الاجتماع بهم علاه الخجل، واضطربت حركاته، وزاد ارتباكه، وثقل على الناس وثقلوا عليه، وعلاج هذا الإلْف والتعوّد، فلا يزال الرجل يتكلف الخطابة حتى يصير خطيبا، والجرأة حتى يصير جريئا .

ومما يفيد فى هذا الباب أن يفرض وقوع النتائج التى تكون إن وقع المكروه ثم يهوّنها على نفسه ، فلو تصوّر أنه خطب فلم يُجِد وانتقده السامعون ثم صغّر هذه النتيجة وهوّنها تشجع ولم يجبن، ولو قرّر الأطباء أن تعمل له عملية جراحية فقدّر الموت واستصغره قابل العملية بثبات وهكذا .

ومن العلاج أن ينظر الى نتائج كل من الجبن والشجاعة فإذا ظهر له أن ما يصل اليه من الخير اذا هو تشجع أكبر مما يصل اليه من الجبن استحثه ذلك على الشجاعة، فمن جبن عن أن يرحل عن بلده لطلب رزق أو علم فلينظر يرَ أن من المحتمل أن يصيبه مرض فى رحلته أو يموت فى غربته، ولكن من المؤكد أنه ان لم يرحل ضاق رزقه، أو قل علمه وكان جبانا حتما ، فان ذلك النظر قد يحمله على

أن يكون شجاعا، لا سيما إن علم أن ليست الحياة أن ينبض قلبه ، ويأكل فى اليوم ثلاثا ، إنما الحياة أن يعمل وينفع ، ويستفيد ويفيد .

تذكر وقت جبنك سِيَر الأبطال ، وأكثِر من مطالعة تاريخ حياتهم تستشعر الشجاعة، وتمتلئ حماسة، وتحس بقوة تدفعك الى العمل على مثالهم، والسير فى طريقهم .

العفـــــة

الاعتــدال – ضبط النفس

ضبط النفس – أو العفة بأوسع معانيها – هو اعتدال الميل الى اللذائذ، وخضوعه لحكم العقـل ، وليس ذلك مقصورا على اللذائذ الجسمية بل يشمل أيضا اللذات النفسية ، كالانفعالات والعواطف، فلا يسمى الشخص «ضابطا لنفسه» إلا اذا اعتدل فى لذاته الجســمية من مأكل ونحوه، واعتدل أيضا فى انفعالاته فلم يغضب لأىّ داع، ولم يندفع فى السير وراء عواطفه، كأن يَحِنّ حنينا شديدا الى وطنه اذا نزح عنه، أو يفرط فى حزن لفقد عزيز عليـه ، وكثير من الرذائل يرجع سببه الى عدم القـدرة على ضبط النفس كالشراهة والدعارة والطمع والإسراف والغضب والسخط والثرثرة والإدمان .

تتضمن هذه الفضيلة أن يكون الإنسان سيد نفسه لا عبدا لشهوات تسيّره كما تشاء .

والناس إزاء الملذات أصناف، فمنهم من ذهب الى الزهد وقمع الشهوات، وقالوا: ”ان شهوات النفس غير متناهية، فإذا أعطاها

المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استحدثتها ، فيصير الإنسان أسير شهوات لا تنقضى ، وعبد هوى لا ينتهى ، ومن كان بهذه الحال لم يُرْجَ له صلاح ، ولم يوجد فيه فضل " — هؤلاء يرون أن أرق أنواع الحياة الأخلاقية محاربة الشهوات ، فلا يتزوجون — مثلا — ولا يأكلون اللحوم ، ولا يمكّنون النفس من مأكل أنيق ، أو مقعد وثير ، أو ملبس جميل ، وقد شنع «سينكا»(١) على من يشرب الماء مثلجا فى أيام الحرّ ، وقال : « قد انتزع الترف من القلوب ما كان بها من موارد الشفقة وأسباب العطف حتى صارت أشد بردا وقسوة من الثلج والجليد » وبالغ بعض الزهاد فلم يكتف بقمع الشهوات بل تعدّاها الى تعذيب النفس بالقيام فى الشمس فى أشدّ ساعات الحرّ ، والتمرّغ على الرخام فى الشتاء ، وهكذا ، وهذا مذهبُ أكثر المعتنقين له من الناقمين على الحياة ، المتشائمين من كل شىء فى الوجود ، المصابين بفقر الدم ، الذين ضعفت شهواتهم لضعف جسمهم ، وقد يرى هذا الرأى أيضا من قويت صحته وكمل جسمه ، واشتدت شهواته ، ولكن كانت ارادته أشدّ وسلطانه على نفسه أقوى ، وأقوى ما يكون ذلك اذا أتى من ناحية العقيدة الدينية .

(١) سنيكا Seneca كاتب وأخلاقى وسياسى رومانى عاش من سنة ٣ ق م الى سنة ٦٥ ب م

والزاهدون أنواع : فمنهم من يرفض أن ينعم فى الحياة بالمآكل الشهىّ ونحوه لأنه يرى أن الاستمرار فى طلب اللذائذ يسبب ألماً، فتصبح النفس شرهة ، أطماعها كثيرة، وآمالها واسعة، وكلما نالت منها الكثير طمعت فيما هو أكثر منه، ثم هى تتألم الآلام الشديدة لما حرمت،وتتجرع مع ماتنال غصصا من الآلام،أضف الى ذلك أن كثرة التمتع باللذة يفقدها قيمتها، فمن يأكل كل يوم طعاما شهيا يصبح بعد مدّة وهذا النوع من الأكل عنده عادىّ، حتى تكون مقدار لذته منه تعادل لذة من قنع بالقليل ، يرى هؤلاء أن شعور الإنسان بأنه قادر على حرمان نفسه يرفعه فوق حوادث الزمان ، ويجعله يرى أن لا قدرة للحوادث ولا للدهر على إخضاعه، وهذا الشعور يحرّر الانسان من ربقة الخوف — وهو شعور فيه من اللذة ما ليس فى الملذات الجسمية — فهم فى الحقيقة يفرّون من لذة للذة أخرى أكبر منها ، هى لذة الراحة والطُّمَأْنِينَة وعلو النفس .

هؤلاء نظرهم شخصىّ أكثرمنه اجتماعيا،فهم يبغون لذة أنفسهم، غاية الأمر أنهم وجدوها فى الراحة وعدم الانغماس فى الشهوات .

ومن الزاهدين نوع آخر أرقى من هؤلاء، زهدوا فى اللذائذ لأن ذلك وسيلة الى إسعاد الناس وراحتهم ، كما فعل عمر بن

الخطاب ، لم يشأ أن يمتع نفسه بالملذات لأنه رأى أنه إن فعل ذلك توسع الولاة ومن بيدهم أمر الأمة فى البذخ والنعيم حتى يرهقوا الرعية ، فزهد ليسعد الناس ، ومن هذا الصنف كثير من المصلحين والعلماء الباحثين ، يهجرون راحتهم ليستكشفوا ما يوفر الراحة على الناس ، وهؤلاء — أيضا — فى الحقيقة لم يضحوا بلذتهم ، بل هم من صنف راقٍ ، يجدون — فى شعورهم بأنهم مصدر لإسعاد الناس — لذة قلما تعادلها لذة .

ومن الزهاد صنف يترهد تدينا ، يتقربون الى الله بالامتناع عن التمتع بملذات الحياة — ولهؤلاء نقول : ان الله تعالى شرع الشرائع لإسعاد الناس ، وقد رضى عمن اتبعها لأنه عمل لإسعادهم ، فمن هجر لذته هو فى عمل صالح يرضى الله — وبعبارة أخرى يسعد الناس — كان عمله مقبولا ، وكان من الصنف الثانى ، ولكن من ظن أن الله يرضى عن الزهد لأنه زهدٌ فقد أخطأ ، لأنه تعالى لم يجعل تعذيب النفوس سبيلا لرضاه ، وماذا ينال الله والناس ممن انقطع للعبادة وزهد فى الحياة ! مُدح رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يقوم الليل ويصوم النهار وينقطع للعبادة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فمن يقوم بشأنه » ؟ قالوا : كلنا قال : « كلكم خير منه » — وحقا ليس يصح لأحد أن يستحل

أن يأكل من عمل النـاس ولا يعمل هو فى الحياة للناس شيئا، إنما يرضى الله عمن هجر لذته لِيُسعد قومه، وليس من العقل تحمل الألم لأنه ألم .

ومن الناس من يرى — على عكس هؤلاء الزهاد — أن يطلق لنفســه العنان ، ويمكنها من كل ملذات الحياة، يرون أن الإنسان فى هذه الحياة إنما خلق ليتنعم، ولم يمنح العقل إلا ليبحث له عن وسائل النعيم، فهو لذلك يعب اللذائذ عبا، وينهمك فيها ما استطاع — وهــذا ضار بالفرد وبالمجموع معا، فلو أبحنا لكل فرد أن يتلذذ كما يشــاء ما انتظم شأن مجتمع، ولتعارضت شهوات الأفراد، وكانت الفوضى المطلقة، وإن جمعية أفرادها ليسوا أعفاء — أعنى أنه لا تحكمهم إلا شهواتهم الجسمية — لتحمل معهـا بذور الانحلال والانحطاط .

وفضــيلة العفة تتطلب من الانسان القصد فى اللذائذ، فإن هو أفرط فانهمك فى شهواته، أو فرّط فأماتها، وبالغ فى الزهــد، فقد حاد عن سواء السبيل، خير طريق فى الحياة أن ينيل الانسان نفســه ملذاتها الطيبــة، ويعطيها مشتهياتها ما لم تخرج عن حدود الأخلاق ، فذلك أدعى الى نشاطها وأقرب الى طبيعتها ، إنمـا

يجب ألّا نتجاوز الحدود المشروعة ، ففى داخلها من الملذات ما هو أضمن لسعادة الفرد والمجموع ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَـةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنيا خَالِصَـةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ وكثيرا ما يكون من المصلحة أن يمنع الإنسان نفسه مما لا بأس به حذرا مما به بأس، كالذى حكى عن بعضهم أنه أشعل لفافة فأحس منها بلذة شديدة فكان ذلك حاملا له على ألّا يدخن ، وسبب ذلك — على ما يظهر — أنه تخوّف من نموّ الرغبة عنده فى التدخين، وخشى شـدّة تسيطر العادة عليه فيما بعد، وكان إحساسه اللذة علامة هذا الخطر فتركه .

وأشير هنا الى مبدأ الأستاذ «جيمْس» القائل : بأنه يجب أن نحافظ على قوّة المقاومة، ونتبرع بعملٍ صـغير كل يوم، لا لسبب إلا مخالفة النفس والهوى ، فان ذلك يعيننا على مقاومة المصائب اذا حان حينها .

فليس يقتضى ضبط النفس القضاء على الرغبات والشهوات، وإنما يقتضى تهذيبها واعتدالها ، وجعلها خاضـعة لحكم العقل ، ففى القضاء على الشهوات قضاء على الشخص وعلى النوع ، وفى اعتدالها سعادتهما جميعا .

أهم أنواع ضبط النفس :

(١) ضبط النفس عن الغضب، فمذمومٌ أن يكون الانسان سريع الغضب يخرج عن عقله للكلمة الصغيرة والسبب الحقير، وليس الغضب بالخطأ دائما ، فهناك حالات يمدح فيها ، فلو رأيت شابا يعذب صغيرا لم يجن جناية ، أو ضعيفا لا يستحق عذابا، أو حيوانا لا حول له ولا حيلة، فحق أن تغضب، كذلك طبيعي أن يغضب الانسان اذا عومل معاملة لا تتفق وشرفه أو نحو ذلك ، فلا بدّ له من الغضب ليدرأ عن نفسه أو غيره الظلم .

ولكن هذه الحالات قليلة اذا قيست بغيرها من حالات الغضب ، فأكثر حالاته رذيلة مذمومة، ولذلك عدّ رذيلة ، وعدّ ضبط النفس عنه فضيلة .

وأكثر ما يدفع الانسان الى الغضب أَثَرَته وحبه الشديد لنفسه، وكثرة التفكير فى حقوقه ، فيتخيل فيما لا يغضب احتقارا له ونيلا منه، وكثيرا ما يستسلم لغضبه فلا يعي ما يقول، ولا يعقل ما يفعل، ويظن أنه بذلك يظهر بمظهر المحترِم لنفسه ، المحافظ على كرامتها ، وهو إنما يظهر بمظهر الطائش الأحمق .

والإنسان فى غضبه حاكم غير منصف، يبالغ فى الشىء ويسوئه، فهو كواضع على عينيه منظارا يكبر ويشوه، وهو لا يرى وقت غضبه إلا الأغلاط، ولذلك تراه يحكم حتى على أعز الناس عليه أحكاما قاسية، والواجب أن نتريث ونسائل أنفسنا هل نحن محقون فى غضبنا ؟ أو ليس لما عُمل أو قيل محمل حسن ؟ هل الشىء يغضب حقيقة بالقدر الذى أرى ؟ أو ليس لمن أغضبنى حسنات كثيرة بجانب هذه الاساءة ؟

واجب ألا نستسلم للغضب، وأن نسلم زمام انفعالاتنا لعقلنا.

(٢) ضبط النفس عن الاسترسال فى الانقباض والسخط، لأن ذلك يكدّر صفو الحياة، وفى الناس كثير من هؤلاء المتشائمين الساخطين الذين يرون أن لا أسوأ من هذا العالم، وأن لذائذه لا تكاد تذكر بجانب آلامه، وحامل لواء هذا المذهب فى العصور الحديثة «شُوبِنْهَوَر» الفيلسوف الألمانى (١٧٨٨ و ١٨٦٠م) — كان يرى أن حياة الانسان سلسلة آلام ونزاع وكفاح، وأن هذا العالم أسوأ ما يكون، فيه من الآلام والشرور أكثر مما فيه من اللذائذ.

وأغلب مايكون هذا النظر عند من ضعفت صحتهم، أو ساءت أعصابهم، أو توالت عليهم المصائب من موت أو فقر أو نحوهما،

فتظلم الدنيا فى أعينهم، ولا يرون فيها إلا ما يؤلم، أحب الشعر اليهم أمثال شعر أبى العلاء، وخير نغمات الموسيقى عندهم ما يبعث على البكاء.

ويظهر أن هؤلاء قد قصرت مشاعرهم عن إدراك ما فى العالم من ملذات، فمثلهم كمثل عُمْى الألوان، الذين يدركون بعضها دون بعض، والحق أن الدنيا مملوءة بالمسرّات والمؤلمات جميعا "ولولا سوء النظم الاجتماعية الحالية وفساد التربية الموجودة لكانت السعادة حظ أكثر الناس ان لم أقل كلهم".

ان الناس يخطئون فى اعتقادهم أن ما يحيط بالانسان من الأمور الخارجية هى التى تجعله ساخطا أو راضيا، بائسا أو منعما — نعم ان الانسان قد يكون أقدر على السعادة فى بعض الظروف دون بعض، ولكن الظروف نفسها لا تجعله سعيدا، فكثيرا ما تتوافر وسائل السعادة عند قوم وهم مع ذلك أشقياء بأنفسهم، لأنهم يخلقون من كل شىء ما يستوجب السخط، ويلوّنون كل ما يرون باللون الأسود.

ان السعادة أو المسرّة تعتمد على أنفسنا أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية، ويجب أن يتعلم الانسان "فنّ المعيشة" وكيف يكون راضيا ولو لم يكن كل شىء حوله وفق ما يتمنى.

(٣) ضبط النفس عن الاسترسال فى الشهوات الجسمية ولا سيما الخمر والنساء، فهما شرّ ما يقع فيه الإنسان، ويفسد عليه حياته، ويضعف من روحانيته، ويقلل من حريته، ويسوقه الى أسوأ حياة، وطريق الاحتياط لذلك عدم التعرّض للمغريات، فلا يجالس المستهترين الذين لا يتحرّجون من قول الهُجر والحض عليه، ولا يقرأ الروايات المثيرة، ولا يغشى أماكن اللهو غير المؤدّب، يصحب من قويت شخصيتهم ونظف لسانهم، وطهر روحهم، وأوجب ما يكون ذلك فى السنّ بين الخامسة عشر والخامسة والعشرين، ففيها تنمو الشهوات وتبعث على الشرور، فلو لم يُحَصَّن الشاب بوسط صالح ورفقة مؤدّبة، ويُعَنْ بما يوضع فى يده من كتب، وما يشاهد من تمثيل، وما يغشى من مجتمعات كان عرضة لأحط أنواع الشرور، فى هذه السنّ يكون المرء عرضة للتحوّل، وأكثر من ساءت حالهم وفسدت أخلاقهم كان فسادهم فى هذا الدور، وقل أن يسقط أحد بعد أن ينجو منه.

(٤) ضبط الفكر فلا يتركه يهيم فى كل واد، ويتجوّل فى كل مجال، فالفكر اذا حام حول الشرور يوشك أن يقع فيها.

وعلى الجملة فضابط نفسه كراكب الفرس الذَّلُول ، يقصد حيث أراد ، فيوجهها كما يشاء — ومن لم يضبط نفسه كراكب الصعبة ، لا يُسيِّرها كما يهوى ، ولا يصل الى غرضه بالسير كما تهوى .

فى ضبط النفس حفظ الصحة ، وطمأنينة العقل ، والسعادة ، والحرية ، وسلطان كسلطان القائد على جنده ، أو الربان الماهر على سفينته .

العـــدل

العدل نوعان — نوع يوصـف به الفرد فيقال إنسـان عادل، ونوع يوصف به المجتمع أو الحكومة، ولنتكلم على كل قسم.

فالعدل فى الأفراد إعطاء كل ذى حق حقـه ، ذلك أن كل انسان لما كان عضوا من أعضـاء الجمعية كان له الحق فى التمتع بنصيب من الخير الذى ينال المجتمع ، فأخذ الانسان نصيبه لا أكثر، واعطاؤه الناس حقوقهم لا أقل ، هو العدل ، فالغصب والسرقة ظلم لأن فى كليهما أخذ ما للغير ومنعه عن حقه، والبائع الذى يكيل للمشترى أو يزن أقل مما اتفقا عليه ظالم لأنه لم يعطه حقه وهكذا .

ومن أعدى أعداء العدل « التحيز » وهو ميل الانسان لأحد المتساويين ميلا يجعله يعطيه أكثر من حقه، وينقص الآخر حقه، فالقاضى مثلا يجب ألّا يفرق فى سيره مع الخصوم بين غنىّ وفقير، وأسود وأبيض ، وذى جاه وعديم الجاه ، لأن عمله إنما هو أن يطبق القانون على الأفراد، والناس أمام القانون سـواء ، فيجب ألّا يجعـل مجالا لحبه أو كرهه ، ولا لغنى الخصم أو فقره ، ونحو ذلك .

وكثيرا ما يتحيز الانسان لآخر ويخطئ فى أحكامه لتحيزه ، وهو مع ذلك غير شاعر بأنه متحيز، ومعتقدٌ الإنصاف فيما يرى ، ومن أجل هذا يجب على الانسان شدّة مراقبته نفسه ، وحذره من الوقوع فى الخطأ .

ويحمل على التحيز أمور :

(١) الحب ، فمن يحب إنسانا يتحيز له ، كالوالدين قلما يريان الخطأ فى عمل أولادهما .

(٢) المنفعة الشخصية، فاحساس المرء بأن أحد الجانبين يكسبه منفعة لاتكون فى الجانب الآخر يجعله يتحيز لأحد الجانبين .

(٣) المظهر الخارجى، فحسن منظر شخص، وجمال هندامه، وفصاحة قوله، وآدابه فى الحديث كثيرا ما تبعث على التحيز وتبعد عن العـــدل .

وواجبٌ يقظة الانسان فى حكمه واجتهاده ألا يتغلب عليه هوى أو ميل يصدّه عن العدل .

وقد كان قدماء الرومانيين يمثلون إلهة العدل بامرأة معصوبة العينين، ممسكة ميزانا ذا كفتين باحدى يديها، وسيفا باليد الأخرى، ويرمزون بعَصب عينيها الى أن العادل ينبغى أن يعمى عن

الاعتبـارات التى تجعـله يتحيز من غير حق كغنى وجاه، وبالميزان الى أنه يجب أن يزن لكل انسان حقه بالقسط، وبالسيف الى أنه يجب أن يلجأ الى القوة فى تحقيق العدل عند الحاجة اليها، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ .

ويحمل على العدل :

(١) عدم التحيز ، فالذى ينظر الى الشىء مجرّدا عن الهوى أقرب الى تحقيق العدل .

(٢) توسيع النظر ورؤية المسألة من وجوهها المتعدّدة، فعند الخلاف فى أمر يجب على كل من المتنازعين أن ينظر الى محل النزاع من الجهة التى ينظر اليها خصمه أيضا، والقاضى عند فصله فى الخصومة يجب أن ينظر الى وجهة كل خصم .

(٣) أن يجعـل مدار الحكم على الباعث للعامل على عمـله لا على مظهره الخارجى، فقد يكون ظاهر العمل سيئا ، ومستفزا للغضب ، ولكنه صادر عن باعث شريف ونية حسنة ، كالذى يقسو على ولده ليربيه .

والمجتمع العادل هو المجتمع الذى له من النظم والقوانين ما يسهّل لكل فرد من أفراده أن يرقّى نفسه على قدر استعداده ، فلا يكون المجتمع عادلا حتى تتوافر لكل طائفة من الناس وسائل رقيهم ، ففى الأمة مثلا طائفة من التجار يحتاجون فى تجارتهم الى تلغراف و بريد وسكك حديدية وهكذا، وطائفة من الناشئين يحتاجون الى مدارس يتعلم فيها كل من أراد أن يتعلم، وفيها من النظم والعلوم ما يسدّ حاجة كل طالب، وطائفة من المتخاصمين يحتاجون الى قضاة وقوانين تردع الجناة وتحفظ حقوق الناس وهكذا ، فاذا قامت الأمة بكل هذا حق لها أن تسمّى مجتمعا عادلا، و إلا فهى مجتمع ظالم .

والمطالَب بتحقيق العدل فى المجتمع كل فرد من أفراده، فكل إنسان مطالَب أن يعمل لتحقيق العدل فى مجتمعه على قدر استطاعته، فاذا احتاجت مدينة الى مستشفيات مثلا فعلى الخطيب أن يخطب حاثا على إنشائها، وعلى كُتّاب الجرائد أن يكتبوا، وعلى الشعراء أن يشعروا، وعلى الأغنياء أن يتبرعوا، وعلى كل ذى قدرة وجاه أن يستعمل قدرته وجاهه فى مساعدة المشروع، ثم على من فى يدهم تنفيذه أن ينفذوا، فاذا لم يعمل كل فرد ما عليه فالأمة كلها آثمة ظالمة ، يقع عليها ضرر تقصيرها ، حتى الأفراد الذين أدّوا

ما عليهم ، لأن المجتمع كما قدمنا جسم عضـوى ، وذلك هو شأن الجسم العضوى ، فلو أن القلب أدى ما عليه ولكن المعدة لم تؤده عوقب كل عضو فى الجسم حتى القلب .

وإذ كانت حكومة كل مجتمع هى القائمة بالأمر فيه فهى لا تعد عادلة إلا اذا قامت بواجبها خير قيام ، وليس واجبها أن تحصـل الخير لنفسها ، ولكن أن تحصل للمجتمع الذى تحكمه أقصى ما تستطيع أن تحصله ، وقد عبر أفلاطون عن هذا بقوله : "إن خير حكومة هى التى تضع كل فرد من الأمة فى خير مكان يليق به ، ويستطيع أن تظهر فيه مواهبه ، ثم تُمدّه بما يحتاجه لأداء ما عهد اليه" وعلى هذا لا تكون الحكومة عادلة إلا اذا قامت بهذه الوظيفة ، وهو تكليف للحكومة شاق ، من المشكوك فيـه أن يتحقق يوما ما ، مهما صغر المجتمع ورقيت حكومته .

وأقل من هذا تكليفا ما قاله بعضهم من أن الحكومة تُعدّ عادلة ما دامت لا تضع العراقيل فى سبيل أفرادها ، وتتركهم أحرارا يعملون ما يشاءون لترقيـة قواهم وملكاتهم وأعمالهم ، حسب استعدادهم ، إلا عند الضرورة القصوى ، أما اذا كان بعض أفراد الشعب يريد مثلا أن يتعلم فيجد السبيل قد سُدّت أمامه ، أو التاجر

لايستطيع أن يرقّى تجارته للعقبات التى تضعها الحكومة فى سبيله ، فاذ ذاك لا يمكن أن توصف حكومة هذا الشعب بالعدل .

العدل والمساواة — كثيرا ما يقرن العدل بالمساواة ، و يعتقد كثير من الناس أن العدل فى المساواة، والظلم فى عدمها، وقد أخذت هذه الكلمة محلا كبيرا فى العقول من عهد الثورة الفرنسية، فقد كان شعارها «الحرية، المساواة، الإخاء»، «كل الناس أحرار، كل الناس متساوون، كل الناس إخوان» .

فى الدنيا وسائل كثيرة من وسائل الحياة الطيبة كالثروة التى لابدّ منها للأكل الطيب والملبس الطيب والمسكن الصالح واقتناء الكتب النافعة، والقدرة على الرياضة البدنية والعقلية، ونحو ذلك، وهذه الثروة لا تكفى لسدّ مطالب كل الناس، فهل من الحق والعدل أن يتساوى الناس فى هذه الوسائل الموجودة أو الحق والعدل فى عدم المساواة؟ هل من العدل أن توزع الثروة من أراض ومناجم ومتاع على الناس بالسواء فلا يكون غنىّ وفقير ولا أرباب أموال وعمال ؟

تغالى قوم فى ذلك، فطلبوا المساواة فى وسائل الحياة كالمال ونحوه، وذكروا لذلك حججا لايتسع هذا الكتاب لذكرها .

والحق أن المساواة التامة لا تمكن لأسباب، أهمها :

(١) أن الناس مختلفون بطبيعتهم فى قواهم وملكاتهم، فمنهم الذكى والغبى، والحاذق والأبله، والكفء وغير الكفء، هكذا خلقهم الله، وهكذا ولدوا، فمن الخُرق أن نمكن الأغبياء والبله وغير الأكفاء من إدارة الأعمال الواسعة، وأن نمنحهم منحا كبيرة لا يستطيعون أن يتمتعوا بها، فانا اذا منحناهم ذلك أساءوا استعمالها، ولم ينتفعوا بثمرتها، مع أنا لو أعطيناهم ضروريات العيش فحسب، وأعطينا ما زاد للكفء القادر سعد الجميع .

(٢) أن الاختلاف بين الناس يبعثهم على الجد، فالفقير اذا رأى الغنى يتمتع بأكثر مما يتمتع به هو جدّ فى العمل ليكون مثله، وحامل الشهادة الثانوية اذا رأى حامل الشهادة العالية يمتاز بميزات أكثر منه رغب وعمل ليكون مثله، وتمتع بعض الناس بالملبس الجميل والمسكن العظيم والسيارات الفخمة يثير فى النفس حب العمل لتصل الى النتيجة المنشودة، ويبعث على الاختراع ويرغب المتزاحمين فى استكشاف خير الطرق لنجاح عملهم، وفى ذلك خير للانسانية على العموم، أما إن نحن سوّينا بين الناس لم نجد ما يحملهم على الجدّ، وقد فطر الناس — متوحشهم ومتمدينهم — على

أن الأمل يُسَيِّرهم ، والرغبة فى عيش خير من عيشتهم هى التى تشجعهم .

ومع أن دعاة المساواة لم يصلوا الى غرضهم فقد كان لهم أثر كبير فى تحسين حالة العمال، وترقية طبقة الفقراء، بزيادة أجورهم، وتقليل ساعات عملهم ، وإنشاء المساكن الصحية لهم ، ونحو ذلك .

فالحق أن المساواة المطلقة فى كل شىء لا تمكن، وليست من العدل، خصوصا بعد ظهور أن الناس مختلفون بالطبيعة — إنما هناك أشياء تعقل فيها المساواة وهى عدل وعدمها ظلم ، من ذلك :

(١) المساواة أمام القانون، بمعنى أنه لا فرق أمامه بين غنىّ وفقير، وشريف وغير شريف، كل يعاقَب على جريمته اذا أجرم، وعند وضع القانون ينبغى ألا تفضل طبقة على طبقة .

(٢) المساواة فى الحقوق ، فكل إنسان له من حق الحرية وحق الحياة ونحو ذلك ما للآخر، ليس لأحد الحق فى أن يخطب أو ينشر رأيه دون الآخر، بل الكل فى ذلك سواء، للأمير من الحق ما لأحد الرعية، وللغنىّ ما للفقير .

(٣) المساواة فى المناصب، أعنى أنه ليست المناصب مقصورة على فئة خاصة، بل كل من تتوافر فيه الصلاحية للمنصب له الحق فيه، وليس للاعتبارات الأخرى كالغنى والجاه دخل فى التفضيل.

(٤) المساواة فى التصويت فى الانتخاب، فليس ذلك حق الأغنياء دون الفقراء، وهذا النوع موضع خلاف بين العلماء، ولم تتبع الأمم نمطا واحدا فى السير عليه.

العدل والرحمة — كثيرا ما يقول الناس: «الرحمة فوق العدل» يعنون بذلك أن العمل حسب ما تقتضيه الرحمة أفضل من العمل حسب ما يقتضيه العدل — وهذا ليس بصحيح على عمومه، بل قد يكون صوابا وقد يكون خطأ، ونحن نذكر أمثلة مما تستعمل فيه هذه الجملة:

(١) موظّف ليس كفئاً، لا يحسن عمله، ولا يفيد الناس، أريد الاستغناء عنه من أجل ذلك لكنه كبير فى السنّ، ورب أسرة وفقير، فيقال: «الرحمة فوق العدل» أى أن العدل يقضى بالاستغناء عنه، والرحمة تقضى ببقائه فى عمله، ولكن يجب أن نطبق فى هذه المسألة العدل لا الرحمة، فالعدل هنا فوق الرحمة، وليست الرحمة فوق العدل، ذلك لأن الضرر الذى ينال الناس من إهماله فى عمله،

وعجزه عن القيام به يفوق الضرر الذى ينال الموظف وأسرته ، ولأن «المصلحة» التى يشتغل فيها ليست ملجأ للإحسان يرتزق منها مع عدم كفايته ، بل هو يأخذ أجره فى مقابل عمله ، فمن لم يحسن عمله لم يستحق أجره ، وكونه رب أسرة وفقيرا يجعله يستحق الإحسان لا من «المصلحة» ولكن من معاهد الإحسان .

(٢) عامل ترام « كمسارى » تريد أن تشفق عليه فتعطيه ثمن التذكرة ولا تأخذها منه « لأن الرحمة فوق العدل » وهذا أيضا خطأ ، لأن ثمن التذكرة ليس ملكك ، ولكن ملك الشركة ولا يصح أن تحسن من مال غيرك إلا برضاه ، فاذا أردت الاحسان فأعطه من مالك الخاص بعد أن تدفع ثمن التذكرة .

(٣) لص قُبض عليه وهو ينتشل «محفظة» فأخذ يستعطف الناس ويبكى ليُفرَج عنه فيقولون : « الرحمة فوق العدل » وليس ذلك بصحيح ، لأن معاقبة السارق من حق الأمة ، فلا يملك العفو عنه بعض الأفراد .

(٤) مسجون سجن ظلما وعدوانا يراد العفو عنه ، فيقال : « الرحمة فوق العدل » وهو خطأ أيضا لأن العدل يقتضى كذلك ألّا يسجن ، فالرحمة والعدل يتفقان فى المطلب ، وليست الرحمة فوق العدل .

نعم فى بعض المواضع يكون استعمال الجملة صحيحا، كما إذا كان لك دَين على آخر فرحمته وتركت دَينك، أو أجلته حتى يوسر، فالعدل أن تأخذه والرحمة أن تتركه أو تؤجله، والرحمة فوق العدل.

وجملة القول أن الجملة صحيحة اذا كان الذى يرحم هو الذى يملك حق العدل، ثم هو يتنازل عن حقه فى العدل ويرحم، أما الرحمة حيث يكون العدل من حق غيره فخطأ بيّن كما مثلنا.

[العدل والإحسان — كذلك كثيرا ما يقرن العدل بالإحسان، ونعنى بالعدل أداء الواجب من غير تحيز، وبالإحسان الفضل فى أداء الواجب والزيادة عليه، ولنضرب لذلك مثالا يتجلى فيه معنى الإحسان.

هب أن اثنين اشتركا فى عمل، وكان أحدهما قويا والآخر ضعيفا، فموقف القوى مع الضعيف لا يعدو أحوالا ثلاثة:

(الأول) أن يستغل القوى مركزه، ويقول: إننى أقوى منه، فلأنتهز فرصة ضعفه وأكلفه عمله وجزءا من عملى، فاذا لم يعمل أجبرته واتخذت ما أستطيع من الوسائل لإرغامه، وهذا موقف يمثل المبدأ المشهور «الحق للقوة» وهو مبدأ سار عليه الناس فى حالة بداوتهم وهمجيتهم. ولا يزال يطبق بين المتمدينين وإن كان أقل من قبل، وهذا هو «الظلم» بعينه.

(الثانى) أن يقول القوىّ : إن علىّ نصيبا من العمل، وعلى زميلى نصيبا ، ولست أستغلّ قوّتى فأحمّل زميلى فوق نصيبه ، ولا أطبق مبدأ «الحق للقوة» ولكن أعمل واجبى لا أكثر ولا أقل، وليعمل هو نصيبه لا أكثر ولا أقل .

وهذا الموقف هو العدل ، يتساوى فيه العاملان بأن يعمل كلٌّ واجبه .

(الثالث) أن يقول القوىّ : إنى أستطيع بحكم قوّتى أن أرغم زميلى على أن يعمل أكثر من نصيبه، وأستطيع أن أعدل معه فأكلفه نصيبه فقط ، ولكن سأعمل فوق ذلك ، سأعمل نصيبى وأعينه على نصيبه، سأساعده فى نصيبه لأنه أخى، ولأنى لو كنت مكانه لتمنيت أن يُعيننى زميلى، فلأعامله بما أحب أن أعامَل به لو كنت مكانه ، ولو كنت أنا الضعيف لتمنيت أن القوىّ يحمل عنّى بعض العبء ، فلأحمل الآن بعض عبئه جريا مع القاعدة الذهبية «أَحِبّ لأخيك ما تحب لنفسك» .

هذا هو «الإحسان» وهو موقف أشرف من العدل، وأعلى منه شأنا] .

الاعتماد على النفس

من أهم الفضائل الاعتماد على النفس ، ويمكن الإنسان أن يعوّدها من صغره، فلو أن الوالدين أفهما أطفالهما وجوب عنايتهم بأنفسهم فى نظافة ملابسهم وانتظامها وأنهم هم المسئولون عن ذلك كان هذا بذرة للاعتماد على النفس .

ويستطيع الوالدان أن ينميا هذه الفضيلة بالإصغاء الى مايبديه الطفل من الأسئلة والإجابة عليها ، وإظهارهما احترام آرائه ومناقشتها ، وإبداء ما فيها من ضعف ، فى لطف ، مهما كانت الأسئلة والآراء سخيفة .

إذا سلك الوالدان هـذا المسلك شعر الطفل بأن له شخصية محترمة، فنما عنده حبّ السؤال، وحب تكوين الآراء، ولم يصبح ببّغاء يردّد فقط مايسمع ويرى — وزاد عنده الشعور كذلك باحترام ما لغيره من شخصية ، فهو يعامل أصدقاءه وزملاءه بالطريقة التى يعامله بها أبواه ، فيصغى للآراء المخالفة لرأيه ، وينقدها فى أدب، فيزيد ذلك فى نمو شخصيته واستقلاله .

كذلك مما يعين على نمو هذه الفضيلة أن يجعل الوالدان لأولادهم «مالية خاصة» يستولون عليها، و يتصرّفون فيها بحرّيتهم، ثم يصحح الوالدان ما ارتكب الأطفال من أخطاء فيها، وهذا هو الطريق الوحيد لتدريبهم على تحمل المسؤولية، وشعورهم بالشخصية، فبيع الأطفال وشراؤهم، ونجاحهم أحيانا وغَبْنُهم أحيانا، يجنبهم الخطأ فى المستقبل، وأكبر برهان على ما نقول ما نرى من شُبّان حُرموا المالَ فى صغرهم ثم أُعْطُوه دفعة واحدة فى شبابهم فأساءوا التصرّف، ووقعوا فى أضرار جسيمة، لأنهم لم يُدَرَّبوا التدريبَ الكافى منذ نشأتهم.

فإذا ذهب الطفل الى المدرسة، وعوّده المعلمون الاستقلال بنفسه فى بعض أعماله، كحَلّ بعض المسائل الحسابية، والكشف فى المعاجم عن الكلمات التى لم يفهمها، وتركوه ونفسه يفكر فى المعضلات، ويتفهم بعض الجمل الصعبة التى تعترضه نمت عنده هذه الفضيلة.

إن من اعتاد ألا يتحمل شيئا من العبء بل ترك غيره يحمل عنه عبأه لا يستطيع بعدُ السيرَ فى الحياة، فالتلميذ الذى ينتظر جاره حتى يحل المسائل ثم ينقلها منه، أو ينتظر المدرّس دائما حتى يشرح

له ما غمض عليه لا يمكن أن يأتى يوم يكون فيه متعلما حقا، فالشجرة التى تُسندها دائما على حائط لا تحمل نفسها، إنما الشجرة التى نمت بنفسها، واعتمدت على ذاتها هى التى تقاوم العواصف، وتكون أصلح للبقاء.

والاعتماد على النفس وسيلة من وسائل الاقتصاد، فالأم التى تعتمد فى كثير من شؤون بيتها على نفسها تقتصد كثيرا، والرجل الذى عوّد نفسه أن يصلح الأشياء الصغيرة فى بيته يوفر كثيرا، وهكذا.

كذلك هو الوسيلة الوحيدة للتعلم، فالطفل لايستطيع أن يتعلم المشى إلا إذا اعتمد على نفسه وسقط ثم قام، ولا يستطيع أحد أن يتعلم السباحة بقراءة كتاب فيها، إنما يتعلم ذلك باعتماده على نفسه وفشله مرّة ونجاحه أخرى، وإنما نتعلم القراءة والكتابة بمحاولاتنا، فإذا اقتصرنا على أن نسمع غيرنا يقرأ، ونظرنا غيرنا يكتب، فمحال أن نقرأ أو نكتب، وهكذا الشأن فى كل علم.

وليس يمكن أن يدوم الزمن الذى يحمل عنا عبأنا فيه آباؤنا، بل لا بدّ من يوم نحمل فيه عبأنا وعبء غيرنا، فكان حتما أن نتسلح من صغرنا بالاعتماد على النفس حتى اذا جاء ذلك اليوم كنا على استعداد لمواجهته — سيأتى اليوم الذى نُكلَّف فيه أن نحصّل المال

ننفق منه على أنفسنا ومَنْ نَعُولهم، فلا بدّ أن نُمَرَّن من صغرنا على العمل الذى نعدّ أنفسنا له من تجارة أو منصب أو حرفة، وهب أننا أغنياء ولسنا فى حاجة الى مَنْصِب أو عمل فليس من الحق أن نعيش عالة على العاملين، بل الحياة نفسها عبء ثقيل اذا لم تلطف بالعـــمل.

وطريقة إعدادنا لذلك أن نتسلح بالعلم و بالخلق، فكل تجارة وكل منصب وكل حرفة لا يفلح صاحبها إلا اذا علم ما يتصل بها وتخلق بما يلزمها.

كيف نربى فضيلة الاعتماد على النفس

من خير الوسائل لذلك أن يعوّد المعلمون الطلبة أن يواجهوا العقبات بأنفسهم، وأن يطلبوا منهم بذل الجهد فى حلها، ولا يلقوا اليهم بالمعلومات إلا بعد أن يُعمِل الطلبة أذهانهم فيها، وكلما أجهد الطالب نفســه فى الاستفادة كان أقرب الى النجاح، فليس أعلم الناس من كان لديه أحسن مكتبة، لأن هذه المكتبة لا تفيده إلا بقدر ما يهضم منها — وهذا هو السبب فى أن أبناء الفقراء وأوساط النـاس — عادة — أقرب الى النجاح من أبنـاء الأغنياء، لأن الأوّلين تدعوهم قلة المـال الى بذل الجهد، ومحاسبتهم أنفسهم على

ما ينفقه عليهم آباؤهم ، ويعملون لأنفسهم حيث يرتكن أولاد الأغنياء فى كثير من شؤونهم على غيرهم .

إن الصعوبات التى يلقاها الإنسان فى حياته هى التى تصقل ملكاته ، والانهماك فى الترف والنعيم يورث الخمول ، وليس يُجَلّى الذهب إلا فى البوتقة ، اعتبر فى ذلك بالنبات ، فان النبات الذى تربى فى حديقة المنزل وبين جدرانه ، ولم يعتد العطش ، ولم يقابل العواصف ، يكون نباتا رقيق الحال لا يعيش اذا تعرّض للجو الخارجى ، وعلى العكس من ذلك ما نبت فى الصحراء بين الشمس القاسية ، والريح العاتية ، كذلك الناشئ اذا نشأ فى مهد النعيم وعُوّد أن يرى كل شىء حسب ما يطلب لايستطيع أن يكون رجلا يواجه الحياة .

يجب أن نتعوّد الاستقلال فى الرأى فلا نقتصر على أن نكرر ما نسمع ، ونعنى بالاستقلال فى الرأى أن نكوّن فكرنا من أنفسنا ، ندرس الشىء ثم نعتقد ما يؤدّينا اليه بحثنا ولو خالفْنا فى ذلك غيرنا ، وقد كان ذلك دائما عمل المصلحين وكبار الرجال ، يفكرون بعقولهم لا بعقول غيرهم ، ولا يتبعون رأى غيرهم إلا اذا قام البرهان على صحته ، ثم اذا رأوا حقا قالوا به مهما كانت نتائج قول الحق .

للاعتماد على النفس لذة يشعر بها الإنسان وإن قلّت نتائج ما يصدر عنه ، فكلنا يُسَرّ من ربح قليل أتى ببذل الجهد ، ولا يرضى عن كثير قُدّم اليه إحسانا ، والرجل يُسَرّ ببيته وان قلّ متاعه، لأنه نتيجة مجهوده العزيز عليه .

النّضال فى الحياة هو الذى يكوّن المرء، والعقبات التى يصادفها فى طريقه فيبذل الجهد فى تخطيها هى التى تربى نفسه، وتعدّه لأن يكون عظيما، والانسان قد يتعلم من فشله أكثر مما يتعلم من نجاحه، فلا خوف من بذل الجهد أن يعقبه فشل ما دام يفتح عينيه ويدرس التجارب التى عاناها، ويتجنب الأخطاء فى مستقبل حياته، فقائد الجيش يتعلم كثيرا من الوقائع التى هُزم فيها، والسياسى يتعلم كثيرا من مواقف فشله، والعالِمُ فى دراسته يستفيد كثيرا مما ارتكب من أغلاط ، والخطيب الماهر ما كان كذلك إلا بعد أن خطب مرارا وسخر الناس منه ، وكذلك الكاتب والشاعر والفنّان .

فإن أردت النجاح فاعتمد على نفسك فى تعلمك وفى تجارتك وفى منصبك، وتعلم مما أخطأت، فإن هذا هو السبيل الوحيد للنجاح .

الطاعــة

رأينا فيما سبق أن الإنسان عضو فى جمعيات كثيرة : عضو فى جمعية الأسرة، وعضو فى جمعية المدرسة، وعضو فى جمعية الأمة، وهكذا .

لكل جمعية من هذه الجمعيات قوانين لابد أن تتبع والا لايمكن بقاؤها، ففى الأسرة — مثلا — يجب على الوالدين أن يطعموا أولادهم ويربوهم ، وعلى الأولاد أن يتبعوا أوامر والديهم ، والا لما بقيت الأسرة، فلو أن كل طفل فى الأسرة فعل كما يهوى ، ولم يخضع لأىّ أمر ، ولم يُعْنَ الوالدان أيّة عناية بأطفالهما ، لصارت معيشة الأسرة مستحيلة — ولو أن كل تلميذ فى مدرسة سار كما يشتهى ، حضر أو لم يحضر ، واذا حضر فعل ما يشاء ، ولم يفعل ما يشاء، وفعل كذلك المعلمون فى المدرسة، لم تعش المدرسة أياما ، ولو أن كل جندىّ فى الجيش اعتبر نفسه مساويا للقائد ، وعمل برأيه فسار يمينا اذا أمره القائد أن يسير شمالا ، لم يكن هذا جيشا صالحا، وكان نصيبه الفشل لا محالة .

من هذا يتضح أن لكل جمعيـة من بيت ومدرسة وجيش قوانين لا يمكن أن تبق هذه الجمعيات بدونها، وأن صلاحها بطاعة قوانينها .

والعصيان فى كل مجتمع يجر الى الفوضى، لأن معنى العصيان انعدام القانون، و إقامة الفرد شهوته وهواه مقام القانون ، ومعنى هذا أنه يريد أن يتخذ الناس ارادته وهواه قانونا بدل القانون الأخلاق ، وإرادة الفرد لا يمكن أن تقهر القـانون الأخلاق كما لا يمكن أن تقهر القانون الطبيعى ، فلو اجتمع النـاس أن يغيروا طبيعة المـاء وقوانين الجذب ما أمكنهم ، كذلك لا يمكنهـم أن يغـيروا طبائع المجتمعات وتغيير ما يصلحها وما يفسـدها ، فخير وسيلة لاصلاحها الجرى حسب القوانين التى تبقيها وترقيها .

بعض هذه القوانين الأخلاقية التى لا بدّ منها للمجتمع وضعت فى القوانين الوضـعية كتحريم السرقة والقتل ، وبعض القوانين كترك الحسـد والكذب ترك للأفراد وضمائرهم ، وكلهـا قوانين أخلاقية يجب إطاعتها ، فإن إطاعتها مجلبة للخير والسعادة ، ومعصيتها مجلبة الشرّ والشقاء .

قد يشعر الانسان أن فى إطاعة الأمر ذلة ، وأن فى العصيان حرية ، وهذا خطأ فى التفكير ، فإن فى الطاعة الحرية ، وفى العصيان

ضياعها ، قد يتخيل الطالب أن المعلم انما يأمره حبا فى الأمر ، ورغبة فى إظهار السلطة، وليس كذلك، فإن الآمر العاقل إنما يأمر مراعيا المصلحة العامة ، وهو مثلك خاضع لها ، وكل الفرق أنه بحكم مركزه وتجاربه تعوّد أن ينظر الى الخير بأحسن مما تنظر، فالحق أن الآمر والمأمور كلاهما يطيع ، يجب ألا يأمر الآمر الا بما فيه خير المأمورين ، أفرادا ومجتمعين ، فالمأمور لا يطيع لأجل الطاعة نفسها، ولا الآمر يأمر لذة فى الأمر ، وانما نأمر ونطيع ليصل كل منا الى سعادته وفلاحه .

وهناك مواقف يجب ألا نطيع فيها، كما اذا أُمِرْنا من صديق بسرقة شيء، أو غش فى امتحان، أو تزوير فى ورق، أو انتخاب من لا يصلح، هنالك يكون العصيان فضيلة لأن فى إطاعة هذه الأوامر وأمثالها خروجا على الأخلاق ومخالَفة للضمير، ونحن ملزَمون باتباع قوانين الأخلاق وسماع صوت الضمير، وانما أُمِرْنا بالطاعة للوالدَين والمعلمين وآمثالهم لأن ثقتنا بهم جعلتنا نعتقد أنهم أوسع منا نظرا ، وأصح رأيا ، فهم اذا أمرونا فإنما يأمرون بما يتفق والأخلاق، واذا نهوا فانما ينهون عن المنكر والإثم، وهم — بحكم صلتهم ومركزهم — لا يودّون لنا إلا الخير .

والحق أن الطاعة هى الفضيلة البارزة التى تميز بين المتمدينين والمتوحشين، فى الأمة المتمدنة يطيع الطفل أوامر أبويه علما منـه بأن لا سعادة للأسرة إلا بالطاعة، والأطفال يتعلمون الطاعة فى البيت فيطيعون فى المدرسة، لأنهم يشعرون أن الحياة المدرسية لا تكون سـعيدة إلا بالطاعة ، ولا قيمة للمدرسـة إلا بالطاعة ، واذا خرج من المدرسة الى الحياة العامة فهو مطيع لقوانين البلاد ، مطيع لقوانين الجمعيات التى ينتسب اليها — وعلى العكس من ذلك الأمة التى لم تأخذ بحظ وافر من المدنية، ففى كل مجتمع عصيان ، فى البيت، وفى المدرسة، وفى محال اللهو، وفى سماع المحاضرات، وفى الشارع، ومظهر هذا العصيان عدم النظام، فإن النظام إنمـا يكون بمراعاة القوانين الموضوعة والقوانين المتعارَفة ، والسـير على وَفقها من غير انتظار رقيب، ولا محاسبة إلا محاسبة الضمير.

وخير الطاعة ما صدرت عن قلب لا خوفا من عقوبة أو رغبة فى مثوبة .

الانتفاع بالزمن

[الزمن كالمال، كلاهما يجب الاقتصاد فيه وتدبيره، وإن كان المال يمكن جمعه وادخاره لوقت الحاجة بخلاف الزمن .

قيمة كل من الزمن والمال فى جودة إنفاقه وحسن استعماله، فالبخيل الذى لا ينفق من ماله إلا فيما يسدّ رمقه فقير، كمن كانت أمواله مزيفة، كذلك من لم ينفق زمنه فيما يزيد فى سعادته وسعادة الناس فعمره مزيف .

إنا نعيش فى زمن محدود ، ليل ونهار يتعاقبان بانتظام، ليس يطغى أحدهما على الآخر، وحياة مقسمة تقسيما محدودا ، صِبًا فشباب فكهولة فشيخوخة ، ولكل قسم عمل خاص لا يليق أن يعمل فى غيره، كالزرع اذا فات أوانه لم يصح أن يزرع فى غيره، وحياة محدودة، فاذا جاء الأجل فلا مفرّ من الموت .

وما فات من الزمن لا يعود ، فالصِّبا اذا فات فات أبدا، والشباب اذا مرّ مرّ أبدا، والزمن المفقود لا يعود أبدا .

واذا كان محدودا وكان لا يمكن أن يُمَدّ فيه أو يُقْصَر، وكانت قيمته فى حسن إنفاقه، وجب أن نحافظ عليه ونستعمله أحسن استعمال .

وليس للانتفاع بالزمن والمحافظة عليـه إلا طريق واحد، هو أن يكون لك غرض فى الحياة ترضى عنـه الأخلاق فتنظم زمنك للوصول اليه .

وإنما يضيع الزمن بأمرين : الأوّل ألا يكون للانسان غرض يسعى اليه ، قال عمر بن الخطاب : "إنى لأكره أن أرى أحدكم سَبَهْلَلاً ، لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة" — فما أضيع زمن قارئ يقرأ ما يقع فى يده من الكتب من غير أن يكون له غرض معين ، كبحث موضوع خاص أو دراسة مسألة خاصة — وما أتعب من يمشى فى الطريق لا لغرض ، يسير من شارع لشارع ويتنقل من حانوت لآخر لا لغرض معين — وتحـديد الغرض يوفر من الزمن الشيء الكثير ، ويسيِّر الانسان فى الحياة على هدى ، كلما صادفتـه أمور عرف كيف ينتخب منها ما يغذى غرضه ، ويتجنب ما لا يتفق معـه ، إن الذين لا يحدّدون أغراضهم ويتركون الزمن يمرّ عليهـم كما يمرّ على الجماد قلمـا يصدر عنهم خير كبير أو يأتون بعمل عظيم — والانسان بلا غرض كالسفينة فى البحر بلا مقصد .

ويلاحظ أن أكثر الناس عملا أوسعهم زمنـا ، ذلك لأنهم محدودو الغرض ، فهم يوجهون أعمالهم لنيله ، ولا يصرفون زمنهم فى التردّد والاختيار ، ولا يكونون كرة فى يد الظروف تلعب بهم كما

تشاء، بل هم الذين يخلقون الظروف ويتصرّفون فيها حسب أغراضهم فى الحياة .

الثانى مما يضيع الزمن أن يكون للانسان غرض محدود ولكنه لا يخلص لغرضه، فلا يجدّ للوصول اليه، ولا يعمل ما يتفق معه.

عدم الغرض وعدم الاخلاص له هما اللصان اللذان يسرقان الزمن ويضيعان فائدته .

ومن نتائج هذين العدوين التأجيل، وعدم الدقة فى مراعاة الوقت المحدود للعمل ، وعدم المواظبة — فتأخر دقائق عن البدء المحدّد معناه ضياع دقائق من وقت العمل،وذلك يؤدّى الى إحدى نتيجتين : إما الاسراع فى العمل وعدم الدقة فيه ليعوّض الزمن الفائت ، وإما التعدّى على أوقات خصصت لواجبات أخرى — ومن هذا النحو تأجيل العمل الى وقت غير وقته، فالعمل المؤجل قلّما يُعْمَل، واذا عُمِل فقلّما يعمل بإتقان كما اذا كان فى وقته .

وليس يتطلب الانتفاع بالزمن أن نعمل باستمرار، وألا نترك وقتا للراحة ،وانما يتطلب أن نستعمل أوقات الراحة والفراغ استعمالا يجعلنا أقدر على العمل ، فاذا صرفنا وقت الفراغ فى كسل وخمول لم ننتفع به ولم يفدنا فى العمل، واذا نحن صرفناه فى لعب مفيد

أو فى رياضة بدنية أفادنا ذلك فى عملنا، وأنالنا من القوة مانستطيع أن نخدم بها غرضنا، وكان هذا تدبيرا واقتصادا .

الزمن هو المادة الخام للانسان، كالخشب الخام فى يد النجار والحديد الخام فى يد الحداد، فكل يستطيع أن يصوغ منه حياة طيبة بجدّه، وحياة سيئة بإهماله — ولأجل أن نجعل لحياتنا قيمة يجب أن نقضى أوقاتنا فيما يتفق وأغراضنا .

ومما يعين على الانتفاع بالزمن أن نعرف — بعد تحديد الغرض — هاتين المسألتين :

(١) كيف نبتدئ العمل .

(٢) وكيف نستمر فيه حتى ننتهى منه .

لعل من أشق الأشياء معرفة الانسان كيف يبتدئ عمله ، وكثير من الزمن يذهب سُدًى فى التفكير فى ذلك — ترى الطالب يريد مذاكرة دروسه فيفكر بم يبدأ، فيرى أن يبدأ بالعلوم الرياضية مثلا، ويشرع فى ذلك ثم يستصعبها فيشرع فى غيرها وهكذا، فهو يصرف زمنا طويلا قبل أن يبدأ بجدّ — أضف الى ذلك أن بدء الشيء صعب عادة لعدم المِرَان ، أو لأنه انتقال من راحة لذيذة الى عمل يشق عليه .

وعلاج الأمر الأول — وهو بم يبدأ — أن يفكر — قبل العمل — فى أولى الأشياء بالبدء، ويدرس وجوه الترجيح ثم يرتب ما يليه وهكذا، ثم يعزم عزما قويا لا يشوبه تردّد، ولا يسمح لنفسه بتغيير ما عزم عليه مهما صادفه من الصعوبات، أما من يرى أن البدء صعب عليه ويرى نفسه منصرفة عن العمل فمما يفيده فى ذلك أن يقرأ فصلا من كتاب يشجعه على العمل، أو قطعة من الشعر تثير ميله الى الجدّ وتعيد اليه نشاطه، أو يستحضر فى ذهنه نتائج الكسل والجدّ، أو يتذكر أشخاصاً جدّوا فنبغوا فى الحياة .

فاذا بدأ فقد قطع شوطا بعيدا للنجاح ، بعد ذلك يجب أن يستمرّ، وانما يستمر بالعزم القوى الثابت ، ويشجعه على ذلك أن يكون العمل الذى يختاره فى الحياة عملا يتفق ونفسه، أعنى أن يكون عنده استعداد له وميل اليه ، يشعر منه بفائدة ولذة — فأكثر أسباب الملل، يرجع الى سوء اختيار العمل .

أوقات الفراغ — إن استعمال أوقات الفراغ استعمالا حسنا من أهم مسائل الحياة التى يجب العناية بها والتفكير فيها، فان أكثر أعمارنا تذهب سُدًى لأنا لا نعرف كيف نستعمل أوقات الفراغ، يقضيها الأطفال فى الحارات والشوارع بلا فائدة، ويقضيها الشبان والشيوخ على "القهوات" حيث لا هواء نقيا ولا منظرا حسنا

ولا رياضة بدنيـة ولا فكرية — أوقات طويلة تذهب فى كلام لا قيمة له، أو لعب لا يفيد، ولا يقصد منه إلا "قتل الوقت" — وأثر ذلك فى أوقات العمل كبير، فمن لم يعرف كيف يلهو لم يعرف كيف يجد .

لعل من أهم الأسـباب لذلك قلة الأندية للرياضة البدنيـة فى الأحياء المختلفة، ففى أكثر الأحياء لا تجد مكانا يرتاض فيه إلا الشارع "والقهوة" — يجب أن تكون أندية اللعب والحـدائق والمكاتب فى كل حىّ من الأحياء .

أضف الى ذلك أن جهل الأمة وعدم تربيتها تربية صحيحة يفسد ذوقها ، وهذا هو السبب فى أنك تجد "القهوة" والروضـة والمكتبة والملعب فى حىّ واحد ثم تجد "القهوة" وحدها هى العامرة بالزائرين .

وسبب ثالث وهو أن فقدان السعادة المنزلية فى بيوتنا جعلنا نفرّ من البيوت — التى كان يجب أن تكون أعز شىء عندنا — الى الأندية العامة نمضى فيها أنفس أوقاتنا . وسبب فقدان السعادة المنزلية يرجع فى الأغلب الى انتشار الفقر وجهل الزوجين — وعدم معرفتهما "فن الحياة"] .

التعاون

التعاون نوعان : تعاون بين أفراد الأمة الواحدة، وتعاون بين الأمم

التعاون بين أفراد الأمة الواحدة

الانسان مدين بحياته ووجوده للمجتمع ، فلولا اجتماع أبويه وتعاونهما ماوُجد ولا تربى، وليس يستطيع بعدُ أن ينقطع عن العالم ويتجرد من كل ما كسبه منه ، فهو حتى لو عاش فى جزيرة وحده، إنما يستعمل — فى تحصيل رزقه وصيد الحيوانات التى حوله — الآلات التى علمه إياها المجتمع ، بل هو لولم يتخذ معه آلات ولا كساء فانما يجمع ما يقتاته وينسج ما يلبسه بمعلومات هو مدين بها لمجتمعه ، فالتعاون بين الأفراد لا بدّ منه للحياة ، وكلما تقدم الناس فى الحضارة كانت حاجتهم الى التعاون أشدّ ، ويظهر ذلك جليا اذا قارنت بين سكان القرى وسكان المدن ، فالفلاح يزرع ، وهو يطحن ويخبز، ولا يستعين على ذلك الا بأهل بيته ، وقد ينسج ملابسه بنفسه من صوف غنمه، ويربى أولاده فى حقله ، وعلى الجملة فمطالب الحياة لديه بسيطة قليلة، يقوم فى أكثرها بنفسه وأهله ، أما ساكن المدن فيحتاج الى مخبز يُعدّ له الخبز، ولبّان

يحضر له اللبن، وفى ملابسه يحتاج الى مراكب تستورد له ملابسه من الخارج، وخياط يخيطها له، ومدارس تُربى أولاده، وترام أو سيارات ينتقل عليها، وجرائد يقرؤها، ونحو ذلك من المطالب التى يستغنى القروى عن كثير منها .

وكثرة الحاجات والمطالب، وشدّة الحاجة الى التعاون، ألجأت الناس الى توزيع الأعمال، وتخصيص كل طائفة لعمل، وتعاون كل طائفة من العمال مع الأخرى .

أنظر – مثلا – الى الكتاب الذى تقرؤه، فقد اشترك فيه ألوف من العمال قبل أن يصل الى يدك، وتعاون عليه طوائف من الصناع كل طائفة تخصصت لعمل، فطوائف لصنع الورق قد تخصصت كل جماعة لنوع من صناعته، هؤلاء لعجينته، وهؤلاء لصقله وهكذا، والمؤلف الذى ألف الكتاب قد اشترك فى إعداده للتأليف جماعة كثيرون، ربوه وأعانوه وعلموه حتى استطاع أن يؤلف، وإذا نظرت الى المطابع التى طبعت الكتاب اتسع مجال النظر، فكم من الصناع اشتركوا فى صنع آلات الطباعة! وصنع الحبر، وصنع الحروف ! وكم من العمال صفّوا الحروف ثم طبعوها ! وهكذا، ولولا هذا التعاون بين طوائف العمال ما وصل الكتاب الى يدك .

وتوزيع العمل على الناس، وتخصيص كل طائفة بعمل ساعد على الاتقان، كالذى ترى فى لاعبى الكرة، فلو أنك رتبت اللاعبين، وكلفت كل لاعب عملا خاصا، انتظم اللعب، وكان أوفى بالغرض، وعلى العكس من ذلك اذا أنت سمحت لكل لاعب أن يأتى بكل أعمال اللعب من غير تحديد.

كذلك كان هذا التوزيع من وسائل توفير الزمن وتوفير المال. فالقمح لو اشتغل أفراد فى حصاده، وآخرون فى طحنه، وطائفة ثالثة فى خبزه، أخذ زمنا أقل فى إعداده، وكان أرخص مما اذا اشتغلت طائفة واحدة بالحصاد والطحن والخبز معا.

لعلك نظرت الى آلة من الآلات الكبيرة كآلة الطباعة، أو آلة رفع المياه، أو توليد الكهرباء، وكيف رأيت أن كل آلة مركبة من أجزاء مختلفة، كل جزء له عمل خاص، فعجلات ومكابس ونحوها تتحرك حركات مختلفة، وكل جزء يتحرك حركة مناسبة للآخر، ومؤدية لتحصيل الغرض من الآلة، كذلك الناس والحياة، هم آلة كبيرة، كل يؤدى عملا جزئيا، وكل يتعاون مع الجزء الآخر فى عمله، ولو قعد جزء هام من العمال عن العمل لوقف سير العمل جميعه، كما إذا وقف جزء هام من آلة الطباعة، وكل جماعة من

الناس صالحون لنوع من العمل قد لا يصلحون لغيره، فالواجب أن يعملوا ما صلحوا له وأن يؤدّوا عملهم على أحسن وجه، علما بأن بقية أجزاء الأمة يتوقف عملها على عملهم، وان لم تر ذلك عيونهم .

كثيرا ماتقرأ أو تسمع أن بعض المؤلفين وعظماء الرجال ماتوا غرقا من إهمال ربان سفينة، أو سقط عليهم البيت من إهمال مهندس، أو نحو ذلك، كل هذا يدلنا على أن كل إنسان فى أمة يتعدّى عمله غيره من الناس، وقد يصل أثر ذلك الى حياتهم، وهذا يجعلنا نشعر بالمسئولية الملقاة على عاتقنا، ويوجب علينا أن نُخرج العمل الذى عُهد الينا كأحسن ما نستطيع، كما يوجب علينا ألا نحتقر من يعمل غير عملنا، كل يؤدّى واجبا، وكل لا بدّ من عمله لسير الأمة، فالمؤلف إنما يستطيع أن يتفرّغ للتأليف لأن غيره من الناس يشتغل له فى إعداد مأكله ومشربه وملبسه، وأنت إنما تتعلم وتتفرّغ لتحصيل علمك لأن غيرك قد كفاك مؤونة السعى لتحصيل العيش، وهكذا الناس، كلٌّ خادمٌ وكلٌّ مخدومٌ، وخير الناس أنفعهم للناس .

ولا يصح أن يسمح بالتعاون بين الأفراد أو الشركات اذا كان فى ذلك ضرر بالأمة، كما يحدث فى الاحتكار، فلو اتحدت شركات

المياه والنور على رفع السعر حتى أرهقوا الشعب كان هذا ضربا من التعاون بين هذه الشركات ، ولكنه تعاون ضارّ لا ترضى عنه الأخلاق ، إنما ترضى الأخلاق عن أنواع من التعاون تزيد فى رقى الأمة ، كالتعاون على حماية العمال من أرباب رءوس الأموال ، وكجمعيات التأليف ، ونوادى الفنون والألعاب الرياضية ، وجمعيات البرّ والاحسان ، وجمعيات التعليم ، فإن التعاون بين هذه الجمعيات والنقابات يزيد فى سعادة الأمة ويعين على نهوضها .

التعاون بين الأمم

هناك نوع آخر من التعاون هو التعاون بين الأمم ، وذلك على ضروب شتى .

من ذلك التعاون التجارى ، فخيرات هذه الأرض قد وزعت على العالم ، فالبنّ والقطن والأرز والفاكهة والفضة والذهب والحديد ونحوها ليست مجموعة فى بقعة واحدة ، وانما يكثر فى أمة بعض الأشياء ويقل البعض الآخر وهكذا ، فتحتاج الأمم الى التعاون وتبادل ما بينهم من الخيرات ، ولو أن كل أمة قصرت حياتها على ما عندها من خيرات لا تحمت فى بعض الأنواع ، وأحست

بالجدب والفقر فى البعض الآخر، ولم تستطع — على العموم — أن تعيش عيشة سعيدة ، فبهذا التبادل تتعاون الأمم على السعادة ، ولذلك كان من السخافة أن تعمد أمة الى إفناء امة أخرى اذ يكون مثلها مثل تاجر يعمد الى إحراق منزل عميله .

كذلك تتعاون الأمم فى نشر الحضارة، ولعل أوضح مثل لذلك اليابان، فقـد رأت حاجتها الى اقتباس المدنيـة الغربية فأرسلت البعثات الى الممالك المختلفـة لتدرس نظمها ، وكانت النتيجة أن نَظَّمَتْ بحريتها على نمط البحرية الانجليزية ، وجيشها على النمط الألمانى واقتبست آلاتها من النمط الأمريكى أحيانا والانجليزى أحيانا وهكذا .

وكذلك تتعاون الأمم فى الاختراع والاستكشاف فالانجليز أمدوا العالم بالآلات البخارية،وأمريكا وصلت الى درجة عظيمة فى استعمال الكهرباء، وعنها أخذ العالم، والكيمائيون الألمان اخترعوا كثيرا من عجائب الكيمياء ؛ والفرنسيون استكشفوا كثيرا من ميكروبات الأمراض ، ونجحوا فى وصف علاجها ، ولما اتجهت الأذهان لترقية الطيران تسابقت الامم المختلفة ، كلٌّ يُدخل عليه نوعا من التحسين ، وكلٌّ يريد الفوز والغلبة ، وكلٌّ يستفيد مما يُدخله الآخر من الإصلاح .

كذلك الشأن فى العلوم والآداب والفنون ، يظهر فيلسوف كبير فى أمة فتنتفع الأمم الأخرى بعلمه ، وتظهر رواية جميلة أو قطعة موسيقية ممتعة فتُمثَّل أو تُوقَّع فى الممالك الأخرى ، حتى يكاد يكون العالِم أو الأديب أو الفنّان عالميًا ، نتاجه للأمم كلها لا لأمته .

وتبادل الآراء نوع من التعاون ، فالأمة ترسل بعثاتها الى الأمة الأخرى تدرس آراءها وتستفيد منها ، كالذى ترى فى المؤتمرات ، تُعقَد لمختلف الموضوعات ، كمؤتمر التربية ، ومؤتمر التاريخ ، ومؤتمر الجغرافيا ، ونحو ذلك ، يجتمعون من عدّة أمم فيتبادلون الأفكار ، ويستفيد كل مما وصل اليه بحث الآخرين .

وتتعاون الأمم على ما يصيب احداها من الكوارث ، فزلزال مسينا ، وثوران البراكين ، ونحو ذلك يحُلّ بالأمم أعظم المصائب ، فتتعاون الأمم على درء الشرّ ، وإغاثة المنكوبين ، بما يتبرعون به من مال ورجال .

ومن مظاهر هذا التعاون ما كان بين الحكومات ، فالمعاهدات بين الأمم فى تبادل البريد والتلغرافات ونحو ذلك أثر من آثاره ، وكذلك تعاقد حكومات الأمم المختلفة على منع تجارة الرقيق ، ومحاولتهم الآن التعاون على نقص التسليح ، والعمل على منع الحرب ، وإحلال عصبة الأمم محل تحكيم السلاح ، وان كان ذلك مما لا يزال أملا يُرتجى .

خلاصـــــة

وبعد، فهذه الفضائل وأمثالها لايرقى الانسان فى اكتسابها إلا بأمرين :

(الأول) محاسبة النفس وسؤالها من حين الى حين فى أية فضيلة ٱرتقيتُ وفى أيتها ضعفتُ، هل أنا اليوم أصدق منى أمس، والى أية درجة نجحت فى التزامى الصدق ، بهذا الامتحان ونحوه يستطيع الانسان أن يتتبع نفسه ويراقبها فى سيرها .

اذا رأيت نفسك تغضب كل يوم فٱجتهد أن يمرّ يوم لاتغضب فيه ، ثم اجتهد أن يمرّ يومان فثلاثة، فاذا نجحت فى مرور أيام لم تغضب فيها فتصدّق بصدقة شكرا لله على تقدّمك فى النجاح فى كسب هذه الفضيلة، وانتقل الى غيرها وهكذا .

(الثانى) الإرادة القوية المسيطرة على النفس، فالإرادة قابلة للتمرّن، ومثلها مثل من يبتدئ فى ركوب درّاجة (بسكليت) فهو فى أول أمره يختل توازنه ،ولا يستطيع أن يسيطر عليها، يعلم مايريد ولكن لايستطيع أن يصرّفها كما يريد، وبالتدريج والمرانة تطيعه الدرّاجة، وتنتظم حركته، وتصبح تحت سلطته، ويسير فى سهولته سيرا آليا .

وهذا هو ما ينبغى فى سيطرة الانسان على نفسه، يكون لإرادته من القوّة ماتستطيع به أن توجه النفس الى ماتعتقد من خير وصواب .

وكان تمام طبع هذا الكتاب بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الجمعة ٣٠ ربيع الأول سنة ١٣٥٠ ﻫ (١٤ أغسطس سنة ١٩٣١ م) م ٤   محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية